مهديوي, ابراهيم. مجلة القدس للبحوث الأكاديمية
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 1(2):91-109, 2023
DOI: https://doi.org/10.47874/2023pp:91-109

اللغة والعمارة: دراسة سميولسانية في مكونات اللغة المعمارية وخصائصها

ابراهيم مهديوي

الملخص

تناقش هذه المقالة موضوع العلاقة التكاملية بين العمارة واللغة استنادا إلى أسس لسانية ومنطلقات سميائية ثقافية، لتُبيِّن أن العمارة شكل من أشكال التواصل الإنساني الذي يبعث رسائل خفية تُغطّيها الاعتبارات النفعية وتحجبها الخصائص الجمالية؛ إذ ينتظم النسق المعماري - كغيره من الأنساق التعبيرية - بصفته نسقا من العلامات المختلفة المعبِّرة عن أفكار لا تنفصل عن هوية الفضاء السميائي، ومعاييره الثقافية، وذاكرته التاريخية. وقد توصلت هذه المقالة إلى تأكيد أن النسق المعماري موضوع تواصلي يمتلك لغة ثانوية مركّبة المفردات ومعقَّدة البناء قادرة على توصيل المعلومات وتبادلها، والإخبار عن القيم والمعتقدات، والتعبير عن الهوية، وبناء الذاكرة الثقافية الجمعية، وتقديم صورة عن العالم والآخر والزمن والفضاء.

الكلمات المفتاحية: سميائيات معمارية، لسانيات، لغة معمارية ثانوية، تواصل معماري، هوية.

Language and Architecture: A Semio-Linguistic Study of the Components and Characteristics of the Architectural Language

Abstract

This article discusses the subject of Architecture and Language based on integrated linguistic foundations and cultural semiotic premises, showing that Architecture is a form of human communication that sends hidden messages that are shrouded by utilitarian considerations and aesthetically obscured. The Architectural system - like other expressive systems- is organized as a system of different signs expressing ideas that are inseparable from the identity of the semiosphere, its cultural norms and historical memory. This article concluded that the architectural system is a communicative object that possesses a secondary Language with complex vocabulary and complex structure capable of communicating and exchanging information, telling about values and beliefs, expressing identity, constructing collective cultural memory, and presenting an image of the world, the Other, time and space.

Keywords: Architectural Semiotics, Linguistics, Secondary Architectural Language, Architectural Communication, Identity.

د. ابراهيم مهديوي، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المملكة المغربية.
للمراسلة - البريد الإلكتروني: mehdiouibrahim@gmail.com.
حقوق النشر ٢٣ . ٢, جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن الاستخدام عن طريق جامعة القدس, (www.alquds.edu).

مقدمة

تُعْنى السميائيات (Semiotics) بدراسة عمليات إنتاج المعنى وتداوله داخل التجربة الإنسانية من حيث هي أشكال رمزية توسطية بلغة «إرنست كاسيرر» (Ernst Cassirer)، أو أنساق علامات وظيفية مختلفة على حد تعبير مدرسة تارتو موسكو السميائية. وإذا كانت السميائيات علم العلامات، فهذا معناه أنها تحليل يتتبّع سيرورات الإنتاج والتلقي، وهو ما جعل السميوزيس (Semiosis) موضوعا لهذا العلم الدلالي. من هذا المنطلق، تدرس السميائيات حركية أنساق العلامات في اللغة والأدب والثقافة والفن في ضوء مقاربة تأويلية تشكل الوجه التطبيقي للنظرية السميائية. لقد بيّن الدرس السميائي أن الوجود الثقافي- أولا وقبل كل شيء- وجود سميائي يتشكل من أنساق علامات ذوات طبائع جوهرية مختلفة: لسانية، واصطناعية، وثقافية فنية. لكن الثابت أن جميعها جزء من سيرورة سميائية لتوليد الدلالات، وإبلاغ المعلومات.

تَبني هذه الأنساق السميائية مجتمعة «كَوْنًا سميائيا» (Semiosphere) بمصطلحية «يوري لوتمان» (Juri Lotman)، وتربطها داخله علاقات متنوعة. فقد رصد «فيرديناند دي سوسير» (Ferdinand De Saussure) هذه الارتباطات؛ وذلك حين جعل اللسان أرقى هذه الأنساق السيميولوجية، فهو مُؤوِّل نفسه، ومؤول جميع الأنساق غير اللسانية، ووجهها اللفظي، وهو أيضا «المصفاة» التي عبرها تحضر هذه الأنساق في الذهن (بنكّراد، ٢٠١٩، ص. ٤٥)، فلا يمكننا الحديث- مثلا- عن «المتحف» انطلاقا من مكوناته المتباينة (اللوحات الإرشادية، والآثار، وغيرهما)، بل نستعين بقدرات اللسان لنتكلم عنه، ونصفه، ونُحدّد مكوناته، ونُسمّيها، ونُؤوّلها لنتعرف على حقيقته السميائية.

انتبه «إميل بنفنيست» (Emile Benveniste)- أيضا- إلى طبيعة هذه العلاقات بين أنساق فضائنا السميائي ووضّحها، مشيرا إلى أنه- وهذا أمر مؤكد حتما- لا يمكن بناء سميائيات لنسق منمذج ثانوي (Secondary Modeling System) سواء تعلق الأمر بالصوت، أو اللون، أو الصورة، أو المسرح، أو المعمار، أو أيّ نسق سميائي آخر غير لساني إلا باستعارة واقتراض إمكانات التأويل من اللغة الطبيعية (اللسان). وقد لخص هذه التعالقات في ثلاثة أنواع هي:

أ- علاقة توليدية (Relation d’engendrement): تعني إمكان توليد نسق سميائي من نسق سميائي آخر، ويُشترط أن يكونا معا من الطبيعة نفسها ومتزامنين أيضا، كي نتجنب الحديث عن تلك اللغة الاشتقاقية التي تميز أغلب أنظمة الكتابة (توجد علاقة اشتقاقية بين الكتابة الهيروغليفية والكتابة الديموطيقية). لهذا، فالتوليد، استنادا إلى ذلك، يمكن أن يشمل قواعد ونمط اشتغال اللغة الطبيعية وإكسابها نسقا سميائيا آخر، كالعمارة؛

ب- علاقة تناظر أو تماثل (Homologie) بين نسقين سميائيَّين أو أكثر، وتعني أن ثمة مجموعة من العلاقات بين أجزاء نسقين سميائيين، وهو ما غاب عن علاقة التوليد التي تحدث بين نسقين سميائيين منفصلين على حد تعبير «إميل بنفنيست». يمكن اعتمادا على علاقة التماثل أن نفسر اشتغال أجزاء أو قواعد نسق سميائي قياسا على نمط اشتغال نسق سميائي آخر؛ كأنْ نفترض أن النسق المعماري يشتغل وَفْق آليات وقوانين لا تقل أهمية دلالية وتواصلية عن النسق اللساني من حيث مكوناته وآليات اشتغاله، وهي دراسة مقارنة تصل إلى درجة المماثلة والمحاكاة، لكنها لا تُعدُّ استنساخا كليا للأصل اللساني؛

هـ- تسمى العلاقة الثالثة علاقة تأويلية (Relation d’interprétance). نحتاج في هذه العلاقة إلى تمييز النسق المؤوِّل (اللغة الواصفة أو الميثالغة) (Metalinguistic) عن النسق المؤوَّل (موضوع الوصف)، أي التفريق بين الأنساق التي تُمفصِل ذاتها بذاتها بفضل ما تحتوي عليه من قدرات سميائية خاصة، والأنساق التي تظهر فقط من خلال تدخّل نمط آخر للتعبير. يمكن تسويغ هذا المبدأ بأن اللسان مؤوِّلُ جميع الأنساق السميائية، ووجهها اللفظي أيضا. إذ لا يوجد نسق آخر يمتلك «لسانا» يمكنه من خلاله تصنيف وتأويل ذاته وَفْقًا لملامحه السميائية، بالمقابل، يمكن للسان، من حيث المبدأ، تصنيف وتأويل كل شيء، بما في ذلك ذاته (Benveniste, 1974, pp. 60- 62).

استثمر سميائيّو مدرسة تارتو موسكو السميائية (Tartu-Moscow Semiotic School) بالإضافة إلى ذلك الأصول اللسانية والسميائية السابقة من أجل صَوْغ سميائيات ثقافية تأويلية تجعل فعل النمذجة (Modeling) أساس التدليل السميائي. فقد ناقشوا العلاقة بين أنساق النمذجة الأولية (Primary Modeling Systems) كاللغتين العربية والإنجليزية، وأنساق النمذجة الثانوية (Secondary Modeling Systems) كالشعر والرقص والموسيقى، مُبرزِين أن ما هو ثانوي مبنيّ على أساس ما هو أوّلي؛ فنحن نصف، ونؤوّل، ونتفكر، ونتحدث عن أيّ نسق منمذج ثانوي اعتمادا على قدرات النسق المنمذج الأولي، ذلك أن اللغة الطبيعية «لغةٌ أولية، سواءٌ من وجهة نظر محايثة أو وظيفية؛ إذ تُنظَّم اللغة بوصفها نسقا مركبا (من وجهة نظر محايثة)، وهذا هو المثال الذي يمكن أن يُتّخَذ، على حد تعبير لوتمان، بوصفه عيّنةً أو نموذجا، وهي أيضا (من منظور وظيفي) الأداة الأكثر سهولة التي يسهل الوصول إليها لوصف الأنساق الآخرى» (Lorusso, 2015, p. 70).

إن مفهوم النمذجة السميائية (Semiotic Modeling) أحد الملامح المميِّزة للبحث السميائي والتحليل الثقافي عند مدرسة تارتو موسكو السميائية. فقد أكد «توماس سيبوك» (Thomas Sebeok)- في مقاله الموسوم بـ: «بأي معنى تعد اللغة نسقا منمذجا أوّليا» (١٩٨٨) - أن «التمييز بين أنساق النمذجة الأولية والثانوية تمّ تقديمه لأول مرة من قبل «أندريه زاليزنياك» (Andrey Zaliznyak)، و«فياتشسلاف إيفانوف» (Vyacheslav Ivanov)، و«فلاديمير طوبوروف» (Vladimir Toporov) في مقال مشترك عام (١٩٦٢) بعنوان: «دراسة بنيوية تصنيفية لأنساق النمذجة السميائية» (Semenenko, 2012, p. 37). يقصد بهذا أن «التعبير عن نسق النمذجة الأولي- يقترن، بوصفه قاعدة عامة، تتقابل مع مفهوم نسق النمذجة الثانوي، الذي يؤكد طابعه الاشتقاقي في علاقته باللغة الطبيعية- كان مركزًا بالنسبة للسميائيات الروسية لمدرسة تارتو- موسكو منذ ١٩٦٢، عندما اقترحه «زايليزنياك» وإيفانوف وطوبوروف» (Sebeok, 2001, p. 139).

للإشارة، لم توظف المدرسة السميائية المذكورة مصطلح النمذجة إلا في مقال «يوري لوتمان» الموسوم بـ: «قضية المعنى في أنساق النمذجة الثانوية» عام (١٩٦٥)، وهي المادة العلمية نفسها التي أعيد نشرها لاحقا في فصل من فصول كتابه: «بنية النص الفني» (١٩٧٧)، بعنوان: «إشكالية المعنى في النص الفني». وقد حدَّد إجرائيا العلاقة بين أنساق النمذجة السميائية كالتالي: «نسق النمذجة الثانوي بنية مؤسسة على أساس اللغة الطبيعية. يأخذ النسق لاحقا بنيةً ثانوية إضافية قد تكون إيديولوجية، أو أخلاقية، أو فنية، إلخ. يمكن بناء المعاني في هذا النسق الثانوي وَفقا للوسائل الكامنة في اللغات الطبيعية أو من خلال الوسائل المستعمَلة في أنساق سميائية أخرى» (Monticelle, 2016, p. 440). إن «الأنساق التي تكون اللغة الطبيعية أساسا لها (...) تسمى أنساق النمذجة الثانوية. لهذا، تُفسَّر اللغات الطبيعية، باختصار، على أنها أولية، أو البنية الرئيسة لجميع أنساق العلامات الإنسانية الآخرى؛ وهذه الأخيرة- مثل الأسطورة والدين- بنياتٌ نشأت على أساس اللغات الطبيعية» (Sebeok, 2001, p. 140). وبصيغة أخرى، فإن النسق المنمذج الثانوي يُبنى على أساس النسق المنمذج الأولي؛ إما بكيفية مباشرة كما هي الحال في الأدب، أو بطريقة موازية كما هي الحال في الموسيقى والرسم وغيرهما. إن النمذجة السميائية في السميائيات الثقافية تُعبِّر عن عملية مركزية في السميائيات بصورة عامة؛ ويتعلق الأمر بالسيرورة المفضية إلى إنتاج ما لا حصر له من الدلالات، نظريا على الأقل. إذ تُمكِّن هذه العملية الأنساق المنمذجة الأولية من وصف العلامة، وتعيينها، وتسميتها، وتحديد إحالتها المرجعية في الواقع، بينما تنزاح هذه العلامة في سياق الثقافة والمجتمع والتاريخ والفنون داخل الكون السميائي المعني عن معارفها الصريحة والمباشرة ووجودها الأولي، لتعانق خصيصة الإبداعية الدلالية أو التوليد الدلالي غير النهائي الذي يميز أنساق النمذجة الثانوية كافة.

تحدّث «بيتر طوروب» (Peeter Torop)- أيضا- عن صلة النسق الأولي بالنسق الثانوي في إطار النمذجة السميائية، مُعْتَبِرًا أن اللسان نسق منمذج أولي، وأن الأنساق المنمذجة الثانوية هي أنساق الفنون والثقافات، وأن لغات ثقافية وفنية مركبة كالفيلم والموسيقى والرسم لغات محاكية للنموذج اللساني (Torop, 2015, p. 175). إننا نتحدث في السميائيات الثقافية (Cultural Semiotics) عن لغات

> «الفن، والدين، والمعمار، والرقص، والموضة. إذ يمتلك كل واحد من هذه الأكوان الثقافية (Cultural Spheres) أشكاله النموذجية، وقواعده، وفضاءاته، ويمكن استعمالها، بدورها، للتعبير عن جوانب محددة من الثقافة، لكن من أجل أن تتخذ هذه الأشكال تداولًا سميائيًّا فهي تحتاج إلى لغة طبيعية، يجب أن تصبح موضوعَ خطابٍ. بالإضافة إلى ذلك، نفكر في الفن، والموضة، والمعمار، وغيره، بصفتها لغات. لذلك، نحْن عرضة للبحث في

> هـذه الأشـكال المختلفـة للتعبيـر عـن تنظيـم العلامـات المشـابهة أو المماثلـة للغـة. لهـذا، تشـتغل اللغـة الطبيعيـة بِعَدّهـا أداة ونموذجـا للغـات الثقافيـة الأُخَـر التـي تغـدو مـن ثـم ثانويـةً. فنمذجتهـا و«قوتهـا» الوظيفيـة هـي أن الثقافـة ككل، فـي كل تعبيـر وَتَجَـلٍّ، يمكـن تصوّرهـا بوصفهـا لغـة، ومـن ثـم، بصفتهـا تواصـلا» (Lorusso, 2015, p. 70).

تُشـكّل التصـورات السـميائية المذكـورة التـي ناقشـت علاقـات الأنسـاق السـميائية داخـل التجربـة الإنسـانية أسسـا نظريـة وأطـرا منهجيـة لدراسـة موضـوع العمـارة واللغـة. وبنـاء علـى ذلـك، فإننـا نفتـرض أن ثمـة ارتباطـات وتماثـلا منهجيـا بيـن النسـقين اللسـاني والمعمـاري داخـل الفضـاء الثقافـي، فالمعمـار (Architecture)- كمـا اللسـان- نسـق سـميائي مُعبِّـر عـن أفـكار معينـة بواسـطة لغـة معماريـة فنيـة ثانويـة معقـدة، وسـتكون مهمـة التحليـل السـميولساني مناقشـة هـذه العلاقـة مـن أجـل تبيـان مفـردات اللغـة المعماريـة، وكشـف خصائصهـا البنيويـة والتركيبيـة والجماليـة والسـميائية، وذلـك اسـتنادا إلـى علاقـات «التوليـد»، و«التماثـل»، و«التأويـل» التـي تجمـع النسـقين الأوّلـي والثانـوي.

دوافع البحث

إن هـذه المقالـة لا تدعـي المماثلـة المطلقـة بيـن النسـقين اللسـاني والمعمـاري، وإنمـا تُظهِـر بعـض الملامـح المشـابهة للسـان فـي العمـارة. ويهـدف هـذا القيـاس المنهجـي بيـن النسـق اللسـاني والنسـق المعمـاري إلـى تبيـان أن العمـارة تمتلـك لغـة ثانويـة مركبـة المفـردات ومعقـدة البنـاء قـادرة علـى مخاطبـة المتلقـي. فقـد كان مـن بيـن أهـم دوافـع اختيارنـا لهـذا الموضـوع تأييـد أن العمـارة ظاهـرة سـميائية تواصليـة، أيْ واقعـة ثقافيـة ناطِقـة ومعبّـرة عـن هويـة قاطنيهـا، إذ نسـكن العمـارة ونُشـيِّدها دون أن نتأمـل فـي خطابهـا، ودون أن نتحاور معهـا أو نحادثهـا، فـي حيـن أنهـا تتكلـم إلينـا يوميـا عبـر أبسـط وحداتهـا المعماريـة وأكثرهـا ألفـة. لذلـك، وجـب علينـا أن نعـيَ مـا الـذي تقولـه العمـارة مـن خـلال تصميمهـا المعمـاري، ومكوناتهـا الوظيفيـة. ومـن ثـم، يتعيـن علـى أعضـاء الثقافـة أن يدركـوا أن كل شـيء فـي العمـارة مؤشـر دلالـي يوحـي بأكثـر ممـا يُصـرِّح؛ ذلـك أن تصميمهـا المعمـاري، ومـواد بنائهـا المسـتعملة، وزخارفهـا، وألوانهـا، واتجاهـات نوافذهـا وأبوابهـا، وَسَـقْفها، وطرائـق تشـييدها، والأدوات المسـتعملة، هـي ملامـح مميِّـزة لممارسـة العمـارة التـي ضمَّنهـا الإنسـان جـزءا مـن قيمـه، ومعارفـه، ومعتقداتـه، وخبراتـه، وتصـوره للعالـم. وهـو مـا لا ينتبـه إليـه عامـة النـاس؛ بسـبب التوريـة الثقافيـة التـي تمارسـها الخدمـات النفعيـة والخصائـص الجماليـة.

مشكلة البحث

تراهـن هـذه المقالـة علـى تقديـم إضافـة نوعيـة نظريـة وتطبيقيـة فـي موضـوع اللغـة والعمـارة؛ وذلـك مـن خـلال مناقشـة لغـة المعمـار، وتحديـد مفرداتهـا التعبيريـة، ورصـد ملامحهـا الفنيـة الفريـدة، وتحليـل نمـاذج مختـارة مـن الأشـكال المعماريـة الشـعبية. وعلـى هـذا، يمكـن تلخيـص مشـكلة البحـث فـي الأسـئلة التاليـة:

- كيـف فُسِّـرت الثقافـة فـي ضـوء نظريـة أنسـاق العلامـات ضمـن السـميائيات المعاصـرة؟
- وكيـف ناقشـت سـميائيات الثقافـة موضـوع اللغـة فـي الأنسـاق الثقافيـة والفنيـة الثانويـة؟
- وكيـف تسـاعد المقاربـة السـميولسـانية علـى تحديـد طبيعـة لغـة المعمـار، والتعـرف علـى مفرداتهـا التكوينيـة، وكشـف مسـتوياتها التعبيريـة، ورصـد خصائصهـا المميِّـزة، وتأويـل رسـائلها المضمـرة؟

منهج البحث ومنهجيته

تناقـش هـذه المقالـة العلاقـة بيـن اللسـان والعمـارة بصفتهمـا نسـقَيْن ثقافيَّيـن تواصليَّيـن فـي ضـوء التحليـل السـميولسـاني (Semio-Linguistic Analysis)، مُسـتنِدين إلـى إطـار نظـري متكامـل يسـتثمر أدوات لسـانية وسـميائية ثقافيـة مـن أجـل البحـث فـي لغـة المعمـار قياسـا علـى اللسـان مـن حيـث مكوناتُـه والآليـات التـي تحكمـه. ومـن أجـل أن يكـون بحثنـا متّسـق البنـاء، فقـد اعتمدنـا المنهجيـة التاليـة: عملنـا فـي البدايـة علـى تفسـير أن الثقافـة- بمكوناتهـا الماديـة وغيـر الماديـة، وعناصرهـا اللسـانية وغيـر اللسـانية- نظـامٌ تواصلـي، وقصَدْنـا بهـذا أن التواصـل داخـل فضائنـا الثقافـي يحـدث بواسـطة أشـكال رمزيـة توسـطية متعـددة تمثّلهـا: العمـارة، واللسـان، والوشـم، والمسـرح، ومـا إلـى ذلـك. وقـد اعتمدنـا فـي توضيحنـا لهذَيـن البعدَيـن الدلالـي والتواصلـي المتواشـجَين علـى أطروحـات: «فيرديناند دي سوسـير» فـي مؤلَّفـه: «دروس فـي اللسـانيات العامـة»، و«إميـل بنفنيسـت» فـي كتابـه: «مشـاكل اللسـانيات العامـة»، و«أمبرتـو إيكـو» (Umbero Eco) فـي مشـروعه السـميائي التأويلـي ككل، و«يـوري لوتمـان» فـي كتابيـه: «بنيـة النـص الفنـي» و«تحليـل النـص الشـعري: بنيـة القصيـدة»، و«إدوارد تـي هـول» (Edward T. Hall) فـي مؤلَّفيـه: «اللغـة الصامتـة» و«مـا بعـد الثقافـة»، وغيرهـم، مُبيِّنيـن أن التواصـل الثقافـي «تواصـل عالـي السـياق» يتـم بكيفيـة مضمـرة.

ذلـك أن كل نسـق ثقافـي يسـعى إلـى إحـداث تواصـل بيـن طرفيـن يُعـدُّ لغـةً فـي سـميائيات الثقافـة، بِشَـرْط أن ينتظـم بوصفـه نسـقًا مـن العلامـات المتَّسِـقة القـادرة علـى الدلالـة علـى معنـى تـام وتوصيـل رسـالة مكتملـة، وهـو مـا أتـاح لنـا الحديـث عـن لغـات ثقافيـة متنوعـة ومركبـة تختلـف مكوناتهـا وخصائصهـا مـن نسـق ثقافـي إلـى آخـر؛ والسـبب أننـا يمكـن أن نُوصِـل معلومـات ونُبلِـغ رسـائل بلغـات ثانويـة متباينـة: موسـيقية، أو مسـرحية، أو معماريـة، أو احتفاليـة، إلـخ. ناقشـنا بعـد ذلـك لغـة المعمـار، ورصدنـا مكوناتهـا، وأبرَزْنـا ملامحهـا الفنيـة المعقـدة، وكشـفنا أنماطهـا اللغويـة ومسـتوياتها التعبيريـة، وذلـك اسـتنادا إلـى تصـورات «رولان بـارت» (Roland Barthes)، و«ألكسـندر كريسـتوفر» (Alexander Christopher)، وسـميائيّي مدرسـة تارتـو موسـكو، وسـميائيّين معماريّيـن مختلفيـن، مُؤكِديـن أن لغـة العمـارة نسـق سـميائي مركـب مـن أنسـاق علامـات تعبيريـة مختلفـة المفـردات اللغويـة، ومعقـدة البنـاء. ثـم جسـد الشـق الأخيـر مـن الدراسـة بُعْدًا تطبيقيا لإعمال إطارنـا النظـري بصفتـه أداة إجرائيـة لتحليـل لغـة المعمـار، وتحديـد مفرداتهـا اللغويـة، ورصـد خصائصهـا الفنيـة والتركيبيـة، وقـد اسـتهدف تحليلنـا السـميولسـاني نمـاذج معماريـة مختـارة مـن واحـة تافيلالـت بالمغـرب؛ بغـرض تبيـان أن العمـارة الطينيـة أعمـق مـن كونهـا بنيـة سـكنية وعمرانيـة؛ فهـي نسـق دلالـي وموضـوع تواصلـي يبعـث برسـائل إضافيـة لا تنفلـت مـن هويـة قاطنيهـا وقيمهـم ومعتقداتهـم وذاكرتهـم، فـكل شـيء فيهـا علامـة ولغـة، مـن جـدران، وأسـقف، وواجهـة، وتصميـم، وزخرفـة، ونوافـذ، وأبـواب، وألـوان، إلـخ.

أهمية البحث وأهدافه

تكمـن أهميـة هـذا البحـث فـي أنـه يناقـش موضـوع الثقافـة مـن وجهـة نظـر سـميائية صـادرة عـن مدرسـة تارتـو موسـكو فـي سـميائيات الثقافـة، مـع دعـم هـذا التحليـل بأطروحـات سـميائيّين ولسـانيّين وأنثروبولوجيّيـن تأويليّيـن شـكلت مناهجهـم ونظرياتهـم أدوات مسـاعدة علـى التفكيـر السـميائي فـي الثقافـة برمتهـا. ومـن ناحيـة ثانيـة، يركـز البحـث علـى ضـرورة اعتمـاد مماثلـة منهجيـة تُحلِّـل لغـة العمـارة قياسـا علـى اللسـان مـن حيـث وظائـف مكوناتـه وآلياتهـا؛ فالتعبيـرات الثقافيـة والأنسـاق الفنيـة لا تقـل أهميـة عـن التعبيـرات اللسـانية فـي بنـاء الحـدث التواصلـي، وإنجاحـه فـي الحيـاة الاجتماعيـة.

1. الثقافة ظاهرة سميائية تواصلية

حَـددَّت مدرسـة تارتـو موسـكو السـميائية الثقافـة (Culture) موضوعًـا للتحليـل السـميائي الثقافـي؛ لأنهـا أعمـق مـن أن تُختـزَل فـي أبعادهـا الجماليـة، وموضوعاتهـا المباشـرة، ومعطياتهـا الأصليـة التـي يتيحهـا مسـتوى التقريـر، ذلـك أن حقيقتهـا تتجـاوز هـذه المرتبـة إلـى مسـتويات خِطابيـة تُكثِّـف أنسـاقا ثقافيـة هـي مـن صلـب التوافـق الاجتماعـي والتـداول اليومـي. مـن هـذا المنطلـق، فليسـت اللغـة، والتقاليـد، والشـعائر الدينيـة، والطقـوس، والاحتفالات، والأسـطورة، وغيرهـا، كُلًّا مركبـا يجعـل الإنسـان عضـوا اجتماعيـا فحسـب، وإنمـا هـي مـا يجعلـه كائنـا ثقافيـا رامـزا يُنتِـج أشـكالا رمزيـة توسـطية، ويتداولهـا داخـل فضائـه السـميائي.

لقـد فُسِّـرت الثقافـة اسـتنادا إلـى نظريـة أنسـاق العلامـات فـي السـميائيات المعاصـرة بأنهـا نسـق سـميائي عـام يتكـون مـن أنسـاق علامـات فرعيـة وظيفيـة مختلفـة هـي مكوناتهـا الماديـة وغيـر الماديـة، وعناصرهـا اللفظيـة وغيـر اللفظيـة، التـي تُعبِّـر عـن هويتهـا، وتُصـرِّف قيمهـا ومعتقداتهـا، وتبنـي ذاكرتهـا وسـجلّها الحضـاري. فَلَـمْ يَعُـد المعيـار البدَهـي، أو العمَلـي، أو النفعـي، أو الجمالـي منتهـى عمليـة التعـرف (Recognition) علـى حقيقـة العناصـر الثقافيـة، لكـن نُظِـر إليهـا بصفتهـا «مدخلًـا» و«مِهـادًا» لمطـاردة السـميوزيس الثقافـي وتعقبـه فـي مختلـف أشـكال توغّلـه؛ والسـبب أن الـدلالات النسـقية تنسـرب إلـى أيّ موضـوع ثقافـي مهْمـا كانـت طبيعتـه، وكيفمـا كانـت طرائـق انتظـام أنسـاق علاماتـه. إن الملمـح المميـز للثقافـة ماثـل فـي أنهـا ظاهـرة سـميائية تتشـكل مـن أشـكال رمزيـة تتوسـط أبسـط معاملاتنـا اليوميـة بداهـةً واعتيـادًا. ويعنـي هـذا أنهـا عبـارة عـن حوامـل دلاليـة تنقـل المعلومـات، والأخبـار، والأحـداث بواسـطة أشـكال ثقافيـة متعـددة الصيـغ والأشـكال واللغـات. فـي الواقـع، إننـا نتواصـل داخـل وسـطنا الإنسـاني بواسـطة علامـات، فَنُبلِـغ رسـائلنا ونتلقـى أخـرى، ونفهـم بعضنـا بعضـا؛ لأننـا نمتلـك تجـارب جمعيـة، وخبـرات سـابقة، وقواسـم مشـتركة تُسـهِّل التواصـل والحـوار فيمـا بيننـا، ومـن ثـم تُحصِّـل الفهْـم. ولَـك أن تتأمـل لِمَ لا تتمكـن مـن فـكّ شـفرات رسـائل لغويـة أو غيـر لغويـة لا تنتمـي إلـى فضائـك الثقافـي؛ لأنـك لسْـت جـزءا منـه، ولا تعـرف قوانينـه ومعاييـره الثقافيـة وقواعـده التداوليـة، ولسـت علـى معرفـة بذاكرتـه التاريخيـة والثقافيـة، ولا تمتلـك أيـة تجـارب سـابقة تدعـم حوارك وتفاعلـك.

في هذا الإطار، يؤكد «أمبرتو إيكو» أن فهْم الثقافة لا يقتصر على إدراك طبيعتها السميائية فحسب، «بالعكس: الثقافة كلّها يجب أن ندرسها بوصفها ظاهرة تواصلية تقوم على أنساق دلالية هدفها إنتاج المعنى. وهذا معناه أن الثقافة لا يمكن دراستها إلا بهذه الطريقة، وبهذه الطريقة وحدها يمكن فهم الآليات الأساسية في العمل الثقافي» (بريمي، ٢٠١٨، ص ص. ٥٣ - ٥٤).

حدد «يوري لوتمان» في السياق ذاته الثقافة في ضوء عنصرين وظيفيَّين: «(أ) أنها تحتوي على معلومات؛ (ب) وأنه ينبغي تبادل هذه المعلومات وتناقلها» (Lorusso, 2015, p. 68). إذ يشير العنصر الأول إلى البعد التزامني في الثقافة المرتبط بعناصرها التكوينية المختلفة اللسانية والثقافية، وهو ما يلخِّصه مبدأ اللاتجانس (Heterogeneity) الذي يشير إلى تنوع مكوناتها البنيوية من جهة، ووحدتها وانسجامها وديناميّاتها بسبب تواصلها الداخلي أو تنظيمها الذاتي من جهة أخرى. بينما يتعلق العنصر الثاني بالجانب الدياكروني (غير المتزامن) القائم على تداول العناصر الثقافية بشكل دائم عبر كل الأزمنة؛ فهي عناصر حية ثقافيا- عكس العناصر البيولوجية التي تنقرض داخل الكون الحيوي- تؤدي وظائف ثقافية (حتى إنْ تراجع دورها الرئيس فإنها تصير تراثا، أو عنصرا داخل متحف يحكي حضارة شعب ما)، وتنقل معلومات، وتُعَبِّر عن انتمائها الهوياتي، وتبني الذاكرة الجماعية وتحفظها. إن هذا العنصر التعاقبي يجعل الثقافة مجالا حركيا يضم «مجموع المعلومات غير الوراثية التي تكتسبها، وتحفظها، وتنقلها جماعات عديدة في المجتمع البشري» (كوبلي، وجانز، ٢٠٠٥، ص. ١٤٢).

نفهم من تصورَيْ «أمبرتو إيكو» و«يوري لوتمان» أن مصنَّعاتنا الثقافية (Artefacts)، وممارساتنا الاجتماعية أنساقٌ ثقافية واجتماعية وتاريخية حاملة لرسائل ومعلومات مخصوصة لا تنفصل عن ذاكرة وحضارة وهوية أعضاء الثقافة. فنحن لا نتواصل بأشكال فارغة، بل بحوامل دلالية تحقق وظائف معلوماتية داخل كوننا السميائي، فَيُبنى الحدث التواصلي داخل هذا الفضاء السميائي استنادا إلى قوانينه وقواعده الجوهرية، فهذه الحوامل هي المحدد الرئيس لبناء الرسالة، وفكّ شفراتها، ومن ثم فهْمِها. يجب أن نَعِيَ أنه عندما نتحدث إلى بعضنا بعضا، أو نتفاعل اجتماعيا وثقافيا فيما بيننا داخل أية وضعية حوارية حياتية، أو نبلغ معلومات معينة، أو نصف أشياء وموضوعات ما، أو نقوم بأية ممارسة أو أيّ نشاط داخل حياتنا الاجتماعية، فإننا نتوسّط- لزاما- أنساقا سميائية اعتباطية محكومة بالعرف والتوافق الاجتماعيّين، وأن دلالاتها وحداتٌ دلالية ثقافية- إذا استثمرنا تصورات «أمبرتو إيكو»- يتلوّن معناها من ثقافة إلى أخرى (السياق)، ومن قارئ إلى آخر (الموسوعة والخبرات)، ومن عصر إلى آخر (التحولات الثقافية والاجتماعية)، وأن وظائف هذه العلامات الثقافية اختلافيةٌ، إذا استعرنا مصطلحية «فيرديناند دي سوسير» في السيميولوجيا.

إن الثقافة تتشكل من نسيج علامي مركب يشترك في سيرورة بناء المعاني وتوصيل الرسائل؛ فأيّ شيء في الثقافة جزء من سيرورة سميائية للدلالة والإبلاغ. بهذه الكيفية، يمكن فهْم الثقافة على نحو جيّد، ومن ثم يمكن تفسير البُعْد السميائيّ في الوجود الثقافيّ والاجتماعيّ والتاريخيّ. ويُتيح تنوع الأنساق الدلالية والموضوعات التواصلية داخل كوننا الثقافي إمكانات تواصلية متعددة، وهو ما قاد «يوري لوتمان» إلى افتراض مفهوم مُوسَّع للتواصل تندرج ضمنه جميع الأنساق السميائية التي تُحدِث تواصلا لا تقلّ أطرافه عن عنصرين، تأثرًا بدورة الكلام عند «فيرديناند دي سوسير» التي تستدعي- على الأقل- متكلمًا ومستمعًا يتبادلان الأدوار. وعلى هذا، يَحدث التواصل بالأنساق اللسانية كاللغتين العربية والإنجليزية وغيرهما، والأنساق الفنية الثقافية كالمسرح والمعمار والموسيقى وغيرها، والأنساق الاصطناعية العلمية المعتمَدة في وصف مجالات ضيّقة من النشاط الإنساني كالإشارات الطرقية والإشارات في علوم الجبر والفيزياء (لوتمان، ١٩٩٥، ص. ٣٩).

حدد الأنثروبولوجي «إدوارد تي هول» علاوة على ذلك أسلوبين جوهريين للتواصل في الثقافات هما: «السياق العالي»، و«السياق المنخفض»، واللّذين يمكن العثور عليهما بدرجات متفاوتة في كل الثقافات، إذ يذكر:

> يمكن وصف أية معاملة بأنها عالية أو منخفضة أو وسيطة. تتميز المعاملات عالية السياق بالمعلومات المبرمجة مسبقا في جهاز الاستقبال وفي الإعداد، مع الحد الأدنى فقط من المعلومات في الرسالة المرسلة. المعاملات منخفضة السياق هي عكس ذلك. يجب أن تكون معظم المعلومات في الرسالة المرسلة من أجل تعويض ما هو مفقود في السياق (الداخلي والخارجي). كثيرا ما تستعمل التواصلات عالية السياق بوصفها أشكالا فنية (Hall, 1976, p. 101).

وتعرف معاملاتنا اليومية تنوعا كبيرا في الرسائل التي تتحكم في بنائها وضعياتنا الحوارية؛ إذ نحتاج إلى تواصل منخفض السياق حين نودّ تبليغ رسائل ذوات محتويات تفسيرية، أو منطقية، أو حجاجية، أو سببية، أو تبليغ معلومات مباشرة وأخبار، ويوفر هذا النمط من التواصل معرفة مباشرة وتقريرية لا تحتمل أية تأويلات. بينما نحتاج إلى السياق العالي عندما نودّ التلميح إلى شيء ما، أو نضمّن الكلام أشياء إيحائية، أو ننتج أشكالا ثقافية رمزية كالتشكيل والوشم والعمارة وغيرها لتُعبِّر بلغاتها الفنية المركبة عن رسائل تضمينية عميقة، وتُصرِّف قيما وأحكاما وتصنيفات، وتُكثِّف تصورات حول العالم والآخر والزمن والفضاء. نَفْهَمُ من ذلك أن المعطيات المقامية والسياقية تؤثر بشكل فعال في عملية فك شفرات الرسائل الفنية، ومن ثم فهْمها والتواصل معها.

2. اللغة في الأنساق المنمذجة الثانوية

تبيّن مما تقدم أن الثقافة سلسلة متصلة من الأنساق السميائية والموضوعات التواصلية، فمكوناتها المادية وغير المادية أنساق قيم وسلوك ومعارف تُحدِث تفاعلات اجتماعية واتصالات ثقافية بين أفراد الثقافة؛ فهي تُسهِّل عيشهم، وتحقق اندماجهم، وتضمن تكاملهم ووحدتهم، ويتم تناقلها من جيل إلى آخر عبر التنشئة الاجتماعية والتفاعل مع العشيرة والأقران ضمن ذاكرة جمعية ممتدة زمنيا. وذلك المقصود بأن الثقافة مجموعة من المعلومات والأخبار غير الموروثة بيولوجيا، كما صاغت مفهومها مدرسة تارتو موسكو السميائية.

تحتوي الثقافة- بصفتها أنساقا منمذجة ثانوية تضم النحت والموسيقى والتشكيل، في مقابل أنساق منمذجة أولية تجسدها اللغات اللسانية الطبيعية - على لغات ثقافية وفنية مركبة متعددة الأشكال، والصيغ، والأنساق. إذ تخاطبنا الطقوس، والاحتفالات، والزخرفة، والوشم، فتُوصِل لنا معلومات ما مستعينة بلغات مختلفة (لوتمان، ١٩٨٩، ص ص. ٥- ٦): فنية، أو لسانية، على الرُّغم من تباين مفرداتها التعبيرية وطرائق انتظامها. فما يميز هذه اللغات جميعها أنها «نظام سميائي مُنْسِق» (لوتمان، ١٩٨٩، ص. ٦)، بمعنى أنها نسق علامي يتكوّن من مجموعة العلامات المتعاضدة الدالة على أفكار ما، قياسا على مفهوم اللسان عند «فيرديناند دي سوسير»؛ ذلك أن دراسة اللسان يمكن أن توازيها دراسات أُخَر لأشكال تواصلية أخرى شبيهة به من حيث وظائفُ مكوناتها وآليات اشتغالها. إننا نصطلح مفردة «لغة»- بمفهومها الموسَّع- على كل نسق سميائي يُنظِّم عناصره الداخلية/ النسقية وَفْق تنظيم بنيوي صارم ومحكم؛ فلا يمكن لرُكام من العناصر أن ينتج معنى تاما، ويبلغ رسالة مكتملة، ولا قدرة لشظايا من المكونات المنفصلة- التي لا رابط بنيوي وفني يوحِّدها- على تكوين حامل لمعلومات وأفكار.

لذلك، ليس غريبا- حسب «يوري لوتمان»- أنْ يخلق الفن «علاقة بين المرسل والمتلقي (في ظروف معينة يمكن الجمع بين كلتا الوظيفتين في شخص واحد، كما هي الحال في حالة وجود شخص يتحدث إلى نفسه فهو في الوقت نفسه متكلم ومستمع، لكن هذا لا يغير من الأمور شيئا!) هذا يمنحنا الحق في تعريف الفن بوصفه لغة منظمة بكيفية مخصوصة» (Lotman, 1977, p. 7). فبالنسبة له، «يمكن تعريف أيّ نسق يهدف في النهاية إلى إقامة تواصل بين شخصين أو أكثر بأنه لغة (كما هو مذكور فعلا، فإن حالات الاتصالات الإلكترونية تعني ضمنيا أن فردا واحدا يشتغل بوصفه عنصرَيْن)» (Lotman, 1977). يشمل هذا التصور التواصل بين الحيوانات، والآلات (السبيرنطيقا)، لكنه «لا يعد أنساق التواصل داخل الفرد (على سبيل المثال، آليات التنظيم البيوكيميائي أو الإشارات المرسَلة عبر الجهاز العصبي في الكائن الحي) لغةً» (Lotman, 1977)؛ بدليل أن هذا النمط من التواصل لا يتوفر على طرفين مختلفين {أ__ب}، بل يحدث داخل الكائن الحي ذاته عبر جهازه العصبي {أ__أ'}؛ لأنه يعكس التنظيم الذاتي للفرد بالدرجة الأولى، والتفاعل الذاتي لأجهزته فقط. وذلك سبب تفضيل «يوري لوتمان» للحوار التعدّدي كما صاغه «ميخائيل باختين» (Mikhail Bakhtin) في حواريته التي تَعُدّ عيش الحياة مشاركةً في الحوار؛ لأن هذا الأخير عملية تواصلية تضم أطرافا مختلفة كالشخوص الفعليّين، والنصوص الثقافية، والممارسات الاجتماعية أيضا، فهي حوارية غير محدَّدة الأطراف.

إن مفهوم اللغة الذي يتبناه «يوري لوتمان» مفهوم سميائي مخصوص، يقول:

> نفهم أنّ اللغة تعني أيّ نسق تواصلي يستخدم علامات يتم ترتيبها بطريقة معينة. سيتّم تمييز اللغات التي يتم النظر إليها بهذه الطريقة: (أ) عن الأنساق التي لا تشتغل بوصفها أداة للتواصل؛ (ب) وعن الأنساق التي تُستعمَل بوصفها أداة للتواصل لكنها لا تَستعمل علامات؛ (ج) وعن الأنساق التي تُوظَّف بصفتها أداة للتواصل وتَستخدِم علامات تامة أو شبه تامة (Lotman, 1977, p. 8).

وتستثني هذه التحديدات أيّ نشاط إنساني لا ينقل المعلومات ولا يروّجها داخل المجتمع، ولا يتعلق مفهوم اللغة- أيضا- بالأنشطة التي لا تستعمل العلامات وسيطا، كما يستبعد هذا التصور تلك العلامات التي تُوصَف بأنها أنصاف أو أشباه علامات تُوظَّف في التواصل؛ أيْ تلك الأنساق الوسيطة (Intermediate systems)، مثل قسمات الوجه والإيماءات، التي تنتمي- في مجملها- إلى صنف العلامات المصاحبة للغة (Pralinguistics) (Lotman, 1977, pp. 8- 9).

يحدث التواصل في السميائيات الثقافية بأنساق أولية لسانية، وأخرى ثانوية ثقافية وفنية. إذْ

> ينبغي أن نفهم عبارة الثانوية في علاقتها باللغة بمعنًى أكثر من استعمال اللغة الطبيعية بوصفها مادة؛ إذا كانت العبارة لها هذه الإيحاءات والتضمينات، فإن إدراج الفنون غير اللفظية (اللوحة، والموسيقى، وغيرهما) سيكون أمرا غير مسموح به بوضوح. إن العلاقة هنا أكثر تعقيدا: فاللغة الطبيعية ليست فقط أصلا قبليا، لكنها أيضا أقوى نسق للتواصل الإنساني. وبِحُكْم بنيتها، فهي تمارس تأثيرا قويا في النفس الإنسانية وفي العديد من نواحي الحياة المجتمعية. إن أنساق النمذجة الثانوية تُبنى، مثل جميع الأنساق السميائية، على نموذج اللغة. وهذا لا يعني أنها تستنسخ جميع جوانب اللغات الطبيعية، فالموسيقى، على سبيل المثال، تتميز بوضوح عن اللغة الطبيعية بسبب الروابط الدلالية المنطقية، لكننا في الوقت الراهن، نجد وصفا لنص موسيقي بوصفه نوعا من الترتيب الاستبدالي التام (Lotman, 1977, p. 9).

لذلك، يحق لنا أن نتحدث عن لغات في المسرح، والموسيقى، والنحت، والمعمار، وما إلى ذلك، فجميعها تمتلك طاقات تعبيرية فريدة ناتجة عن اشتغال مكوناتها بصفتها نسقا علاميا مركبا معبِّرا عن أفكار ما، ومن ثم يمكننا الحصول على إمكانات تعبيرية متنوعة ومتعددة، إذ بمقدورنا أن نقول أشياء بصيغ موسيقية، أو تشكيلية، أو مسرحية، وما إلى ذلك، لكنها أنساق تعبيرية ليست نسخًا حرفية للسان.

وعلى هذا الأساس، تناقش هذه المقالة المعمار بوصفه نسقا سميائيا وموضوعا تواصليا؛ فهو يخاطبنا يوميا داخل فضائنا المعماري بلغة معمارية فنية معقدة البناء يتداخل في تكوينها ما هو لفظي وفني، ويوجّه إلينا رسائل لا يمكننا تجاهل محتوياتها الثقافية. لكن لا أحد منا استمع يوما إلى لغة المعمار وكلامه، لهذا يجب أن نؤكد- منذ البداية- أنه يمتلك «لغة صامتة»- من حيث عدم امتلاكه لجهاز ناطق فعلي- تنتمي إلى نمط التواصل «عالي السياق» إذا اقتبسنا تصورات «إدوارد تي هول». فإذا كان المعمار «لغة تقدم رسائل، فإن التصميم المعماري يتكلم، ويتواصل من خلال هذه الرسائل» (Stamatovic, 2013, p. 69)، ولن يتأتى لنا التفاعل مع المعمار ما لم ندرك لغته ونتعرف على مفرداتها، أي امتلاكنا سننا لغوية وثقافية مشتركتين تُسهِّلان حوارنا معه.

3. لغة المعمار نسق سميائي مركب: المكونات والخصائص

1.3. إسهامات «رولان بارت» في سميائيات المدينة

ترجع أصول البحث والتساؤل عن «وجود أو وجوب أن تكون لغة معمارية- أو أكثر من لغة- إلى العصور القديمة» (Fisher, 2015, p. 17). وقد اهتم بهذا الموضوع باحثون متعدّدو الاختصاصات (لسانيون، وسميائيون، وعلماء اجتماع، إلخ) في مرحلة ما بعد الحداثة، لعل أبرزهم جهود وتنبؤات الباحث والناقد والصّحافي والسيميولوجي الفرنسي «رولان بارت»، الذي انطلق بنيويا، وصار إلى ما بعد البنيوية. لقد أسهم تحوّله المعرفي في تجديد وعيه النقدي والإدراكي لظواهر ثقافية مختلفة مثل: الموضة، والمطبخ، والرياضة، والإشهار، والمدينة. فقد قادته «مغامرته السميائية» إلى اكتشاف أن ما يُوحِّد شتات هذه المكونات المختلفة رابطٌ دلالي بالأساس، أي كونها جميعا: علامات (بارت، ١٩٩٣، ص. ٢٥). إن الحياة الإنسانية- في تصوره- حياة للدلالات، ومطبخ للمعنى، حيث كل شيء يدلّ على موضوعات ديناميكية تتجاوز معارفه المباشرة، وقابل لأن يُقرَأ سميائيا في ضوء مقاربة تأويلية. فهذا المنظار السميائي لا يُعير اهتماما للعمَليّ، والجماليّ، والنفعيّ، والأصلي في الوقائع الإنسانية، إلا من حيث كونُها خطوات أولية لانطلاق عملية التعرف على مستوياتها الخِطابية الكامنة في استعمالاتها الضمنية داخل فضائها السميائي. وعلى هذا الأساس، خلص «رولان بارت» إلى أن «مشهد المدينة» (Landscape) موضوع سميائي جذاب وغني يمكن أن تضطلع به «سميائيات المدينة» (Semiotics of City) التي ستكون مهمتها تحليل خطاب علاماتها.

لقد تصور المدينة بأنها

> خطاب، وهذا الخطاب هو حقًّا لغة: تتحدث المدينة إلى سكانها، ونحن نتحدث إلى مدينتنا، المدينة التي نحن فيها، ببساطة من خلال العيش فيها، من خلال التجوّل داخلها، من خلال النظر إليها. ما يزال الإشكال يكمن في التعبير عن «لغة المدينة» في مستوى مجازي خالص. فمن السهل جدا الحديث مجازا عن لغة المدينة كما نتحدث عن لغة السينما أو لغة الزهور. ستَتَحقّق قفزة علمية حقيقية عندما نتحدث عن لغة للمدينة دون مجاز. قد نقول إن هذا بالذات ما حدث مع فرويد حينما تحدث لأول مرة عن لغة الأحلام، مُفرِغا هذا التعبير من معناه المجازي من أجل إعطائه معنى حقيقيا (Barthes, 1967, p. 168).

يصادف الانتقال من المجاز إلى التحليل والتأويل في التعاطي مع لغة المدينة إشكالات متعددة لصيقة بخصوصيات الظاهرة الحضرية التي يستدعي التعامل معها استحضار معارف ونظريات وعلوم متكاملة في العلوم الإنسانية والاجتماعية (الجغرافيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والديموغرافيا، إلخ)، وحتى تلك العلوم التي تبدو بعيدة جدا عن دراسة دلالات التمدن. إننا

> «نفتقر إلى تقنية أخيرة، هي الرموز، ومن ثم، نحن في حاجة إلى إشعاع علمي جديد من أجل تحويل هذه المعطيات، للانتقال من المجاز إلى وصف الدلالة؛ وعلى أساسه يمكن أن تكون السيميولوجيا (بالمعنى الشامل للمصطلح) من خلال تطوير تنبئي، يأتي لمساعدتنا. لا أنوي مناقشة إجراءات اكتشاف سيميولوجيا التمدن (Ur-ban Semiology). إذ يمكن أن تتكوّن هذه الإجراءات من خلال تفكيك النص الحضري (Urban Text) إلى وحدات، ثم توزيع هذه الوحدات إلى فئات شكلية، وثالثا، إيجاد قواعد لتأليف هذه الوحدات والنماذج» (Barthes, 1967).

يظهر أنّ «رولان بارت» كان تنبُّئِيًّا مثل «فريديناند دي سوسير» في أغلب دراساته السيميولوجية؛ فقد ربط تطور تحليل لغة المدينة بإشعاع علمي قادر على مفصلتها إلى مستوياتها التعبيرية الفرعية. فإذا كانت المدينة لغة، فإنه ينبغي لنا أن نعي جيدا أنها

> لن تتكلمها إلا الجماعة وليس الأفراد. وهكذا فإذا كان الطابع الحضري (L'urbain) نسقا من العلامات، فإن المدينة هي خطاب المجتمع باستعماله لهذا النسق. ومن ثم، فالمدينة التي تمنح نفسها للخطاب أو للنص هي مدينة ناطقة ينبغي الإنصات إليها. ما الذي تقوله عبْر شتات وشظايا أصوات المنازل والمقاهي والطرقات والساحات والسجون والبشر والحيوان؟ (نجمي، ٢٠٠٠، ص. ١٤٦).

وإذا أصررنا على كون المعنى لغويا- بصرف النظر عن خصيصة النسق السميائي المدروس- وأن بناء الرسائل وتداولها يتم بهذا النسق اللغوي- بغض النظر عن طبيعته اللسانية أو الفنية- فإنه يتعين علينا أن نبحث عما يشير إلى تجليات اللغة في المعمار من حيث المكونات والوظائف قياسا على نسق اللسان.

إن دراسة اللسان يمكن أن تماثلها- منهجيًّا- دراسات متعددة لأشكال تعبيرية فنية وثقافية مختلفة انتظمت أنساق علاماتها الوظيفية بكيفية مُتَّسقة على شكل نسق قادر على توليد المعاني وإبلاغها. وقد اصطلح «يوري لوتمان» على هذه العملية المعرفية: «الترجمة»، التي تعني إمكان فَهْم اشتغال نسق سميائي (المعمار) انطلاقا من إمكانات نسق سميائي آخر (اللسان)، وهي المنهجية ذاتها التي وظّفها في تفسير اشتغال الكون السميائي في سميائيات الثقافة استنادا إلى مفهوم الكون الحيوي عند «فلاديمير فيرنادسكي» (Vladimir Vernadski) في الجيولوجيا والبيولوجيا، الذي صاغه بوصفه فضاء حيث الحياة ممكنة انطلاقا من تفاعل أنظمته المختلفة التي تُكوِّن بنية هرمية متفاوتة المستويات ومعقدة البناء، فلا يمكن تصوره بصفته بيئة للحياة خارج هذه الوضعية الديناميكية؛ فهي المسؤولة عن تماسكه، وانسجامه، ووحدته. وقد أثار هذا التصور «يوري لوتمان»، فافترض أن الكون السميائي يتأسس على سلسلة متصلة من الأنساق السميائية الوظيفية المختلفة التي تبني فضاء سميائيا مُوحَّدا، وحركيا، ومتماسكا، ومنسجما. وقد بلور تصوّره لهذا الفضاء السميائي بصفته مجالا للعلاقات، وفضاء للمعنى والتواصل حيث أنساق العلامات المختلفة وظيفيةٌ ومترابطةٌ، ولا يمكن الحديث عن أي لغة، أو أيّ تواصل خارج سيرورته. وبما أنّ اللسان يمثّل النسق السميائي الدلالي واللغوي الأكثر تعقيدا وتركيبا من الناحية البنيوية، والأداة التأويلية الواصفة لذاتها وباقي أنساق النمذجة السميائية الثانوية من الناحية الوظيفية، فإنه يمكن أن نعد النموذج اللساني مدخلا لدراسة أنساق سميائية غير لفظية.

الأمر نفسه انتبه إليه «يوري لوتمان» حينما عدّ اشتغال الأنساق السميائية المنمذجة الثانوية مبنيًّا على أساس نموذج ونسق اللغة الطبيعية داخل الثقافة المعنية. فلئن كان ما هو ثانوي (اللغات الثقافية والفنية) تابعا لما هو أولي (اللغات الطبيعية)، كان لا بد من أن يحمل شيئا من سماته وملامحه لا استنساخا كاملا، أيْ أن يُعبِّر عن رسالة مخصوصة اعتمادا على مفرداته التكوينية وخصائصه الفنية المميِّزة، فما تتيح الموسيقى من إمكانات تواصلية فنية معقدة ومركبة، لا يتيحها التشكيل، وهكذا دواليك. إننا نستند إلى التحليل السميائي الثقافي من أجل

> معالجة المعمار بوصفه نسقَ علامات من خلال المماثلة (Analogy) مع نسق اللغة. إذ يعد فيرديناند دي سوسير أحد الأوائل الذين كشفوا عن التوازي بين المدينة ونسق اللغة. في السّعي وراء المماثلة، تتشكل البنية التركيبية، والصرفية، والتداولية للعلامة. وقد عُقِدت نقاشات حول اللهجات، واللهجات الفردية (Idiolects)، وحتى الخطاب المعماري الاجتماعي طُرح للنقاش أيضا. كما طُرح أيضا سؤال «الحواجز اللغوية» في الفهم وانعكاس ذلك على الهندسة المعمارية المعاصرة على نطاق واسع (Lazutina et al., 2016, p. 9992).

2.3. جهود «ألكسندر كريستوفر» في توصيف الأنماط العمرانية

بَحَثَ المهندس المعماري الإنجليزي «ألكسندر كريستوفر» في لغة المعمار من خلال كتابه: «الأنماط اللغوية: البلدان، والمباني، والبناء» عام (١٩٧٧). فميَّزَ في مُستهَلّ هذا المؤلَّف بين كتاب «طريقة البناء الخالدة» (١٩٧٩)، وكتاب «الأنماط اللغوية» المذكور، وأوضح أنّ هذين الكتابين هما، في الواقع، يكوِّنان كتابا واحدا: إذْ صاغ عام (١٩٧٧) الأسس النظرية لأنماط عمرانية مختلفة شملت البلدان، والمنازل، والحدائق، والغرف، بينما فسّر إجرائيا عام (١٩٧٩) الكيفية التي يتم بها تشييد هذه الأنماط العمرانية، وهو انتقال من التصور إلى الممارسة. لقد وصف في كتابه «طريقة البناء الخالدة»

> الطبيعة الأساس للمدن والمباني. يظهر لنا، أن المدن والمباني لن تتمكن من البقاء على قيد الحياة، إلا إذا كان هؤلاء الأفراد يتقاسمون نمطا لغويا مشتركا، الذي يمكن من خلاله إنشاء هذه المباني، وأن يكون هذا النمط اللغوي حيًّا في حد ذاته. نقدّم، في هذا الكتاب، نمطا لغويا واحدا ممكنا يطلق عليه الطريقة الخالدة. هذه اللغة إجرائية للغاية. إنها لغة قمنا باستخلاصها من جهود البناء والتخطيط الخاصة بنا خلال الثماني سنوات الماضية. يمكنك استخدامها للعمل مع جيرانك، مع عائلتك، أو العمل على تصميم مكتب أو ورشة عمل أو مبنى عام كالمدرسة. يمكنك استخدامها لإرشادك في عملية البناء الفعلية. (...) فعناصر هذه اللغة كيانات تدعى أنماطا. يصف كل نمط إشكالا يحدث مع مرور الوقت مرة أخرى في محيطنا، ثم يصف جوهر الكل أكثر من مليون مرة، دون أن نفعل ذلك مرّتيْن بالطريقة نفسها (Alexander, 1977, pp. ix- x).

يتميز تعاطي «ألكسندر كريستوفر» مع لغة العمارة بالطابع الإجرائي؛ إذ تجلى ذلك في استعماله لمفردة لغة من أجل صَوْغ أسس وقواعد الهندسة المعمارية، وتوظيفه لمصطلح الأنماط اللغوية لتحديد المكونات التعبيرية داخل الفضاء المعماري، وكشف مستوياتها وفروعها، ورصد علاقاتها، وتفسير ارتباطاتها، متوصّلا إلى أن المدينة نسق عمراني عام يتشكل من أنماط عمرانية مختلفة متعاضدة؛ فداخلها «لا يوجد نمط معزول. يمكن لكل نمط أن يكون موجودا في العالم، فقط إلى الحدّ الذي تدعمه الأنماط الآخرى» (Alexander 1977, p. iiix). إن هذه الأنماط اللغوية العمرانية أشكال هندسية، ومبانٍ معمارية، ووحدات معمارية مختلفة الأشكال والأحجام والمكونات والألوان والمواقع والاتجاهات، إذ تشمل «الأبنية والتصاميم والنوافذ والأبواب والشوارع والأزقة التي يمكن أن نعقد بينها وبين التركيب اللغوي مقارنات وتقابلات، من حيث تتصل الأولى (أي البنية العمرانية) في ما بينها وفق نسق قواعدي معين مثلما تتصل الثانية، وهي الكلمات والجمل والفقرات والفصول (أي البنية اللسانية) وفق نسق مماثل» (مقبول، ٢٠١٦، ص. ٥٠).

تتحقق تعبيرية فضائنا المعماري بواسطة أنماط معمارية متباينة من ثقافة إلى أخرى. فمثلا: يمتلك كل فرد إمكانات تواصلية وأشكالا تعبيرية متنوعة ومتعددة ليُعبِّر عن أفكار معينة بالطريقة التي يراها فعالة لإنجاح عملية التواصل، إذ سيكون أمام احتمالات متعددة ليستعمل مفردات لسانية منظمة تركيبيا لتُشكِّل معنى تاما، وتؤدي رسالة مكتملة. وستختلف كيفيات التعبير عن مضمون هذه الرسالة باختلاف الباعِث/ المرسِل، دون أن نفعل ذلك مرتين بالطريقة ذاتها. كذلك في المعمار، تمتلك كل ثقافة إنسانية أساليب معمارية- طِرازا معماريا، أو هوية معمارية- متنوعة للتعبير عن هويتها وقيمها وذاكرتها، فلكل منها «نمط خاص في البناء والعمران، والذي لا شك أن كثيرا من مفرداته يتكرر في العالم، لكن بأساليب متباينة. هذه الأنماط هي كلها ما يشكل في النهاية المدينة بما هي أسلوب حياة يجمعنا لنوجد فيه وجودا جماليا وفكريا من حيث إن العمارة تعكس فكرتنا عن الفضاء» (مقبول، ٢٠١٦، ص. ٥٠).

لكن إذا كان القياس اللغوي ربما لا مفرّ منه (صُمِّمَت النظرية السميائية لمعالجة كل الظواهر الثقافية، بما في ذلك المعمار) بطرائق معينة كامنة فعلا في النماذج السابقة للتأويل المعماري (تلك الخاصة بإميل فوكمان، وجون سومرسون، ورودولف فيكتور، على سبيل المثال)، فإنه ما يزال يتعين على المرء أن يُقرر على مستوى التماثل الأكثر صلة بين المعمار واللغة. هل العمل الفردي أم مجموع الأعمال هي التي تشبه اللغة؟ أم إن المعمار ككل هو المحاكي للغة؟ (...) لم تعد مهمة المؤول البحث فيما يعنيه العمل الفردي (أكثر من مهمة اللساني في تقديم معاني الجمل مفردة) بل إظهار كيف تشتغل وحدات المعمار لإنتاج المعنى (Baird, 1998, p. 36).

يمكننا التأكيد أن العمارة لغة فنية مركبة تتشكل من وحدات معمارية وظيفية مختلفة يُكوِّنها السقف، والدّرج، والنوافذ، والألوان، والزخرفة، والأشكال الهندسية، والتصميم، وغيرها من المفردات المعمارية التي تتكامل فيما بينها لتبني كُلًّا معماريا فنيا يدل على معنى ثقافي مخصوص هو الرسالة المعمارية المضمَرة التي لا يمكن أن تنفلت من هوية وذاكرة وقيم الفضاء المعماري المعني.

3.3. ثنائيات «فيرديناند دي سوسير» أدوات لتحليل لغة المعمار

تعد ثنائيات «فيرديناند دي سوسير» أدوات إجرائية لتفسير مظاهر اللغة في المعمار؛ إظهارا لمردوديتها التحليلية، وتبيانا لقدراتها على الاشتغال خارج أصلها اللساني، مع تكييف وتعديل في المفاهيم. في هذا الصدد، يعد اللسان (Langue/ Tongue) والكلام (Speech) ثنائية رئيسة في لسانيات وسيميولوجيا سوسير، فقد حدد الأول بأنه نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، ومجموعة من القيم والقواعد والمعايير الثابتة والموحَّدة والمنسجمة خارج أي سياق معين، بمعنى أن اللسان يجسد البعد العرفي والاجتماعي المؤسساتي. بالمقابل، عدّ الكلام تحققات فردية للنسق، وإنجازات مُتغيِّرة ومختلفة دون أن نفعل ذلك مرّتيْن بالكيفية نفسها، فعلى الرغم من الحرية (المسؤولة) التي تميز العملية، فإننا نتصرف وَفق اشتراطات اللسان، والقيود الاجتماعية والثقافية والدينية للكون السميائي المعني. ويقصد بهذا أن الظاهرة اللسانية امتداد من النسق إلى الإجراء.

بالعودة إلى الظاهرة المعمارية، يتّبع المعماري التقليدي بواحة تافيلالت جنوب شرق المملكة المغربية- على سبيل المثال- أعرافا معمارية تعتمد بالدرجة الأولى على مواد بنائية محلية من أجل ممارسة العمارة وَفْق طراز معماري محلي يبني الهوية المعمارية المحلية. ويتشكل هذا الأسلوب المعماري من قواعد معمارية فنية تضبط عمليات البناء والتشييد، وتُنظِّم توزيع الفراغات المعمارية الداخلية والخارجية، وتحكم اتجاهات النوافذ والأبواب، وتنتقي الزخارف والألوان والتصاميم، دون إغفال تأثير العوامل الجغرافية والمناخية والدينية. إن هذه القوانين المعمارية المنسجمة التي تُوحِّد ممارساتنا للعمارة الطينية داخل الفضاء الواحي بتافيلالت هي ما يعد «لسانا معماريا»، بالنظر إلى طابعه التنظيمي بالدرجة الأولى. بينما تجسد العمارات الطينية الفعلية إنجازات معمارية متباينة، وبعبارة أخرى: تشكل الأشكال الخارجية «كلاما معماريا» يختلف باختلاف الثقافات، والأمكنة، والعصور، والخدمات النفعية، والإيحاءات. ذلك أن القصور والقصبات والعمارات الطينية داخل واحة تافيلالت- مثلا- «تتكلم» معماريا بلغات فريدة لا تشبه بالضرورة الأكوان الثقافية الآخرى أو المجاورة، وَلَك أن تتأمل مداخل القصور التي تختلف فيما بينها من جهة، وتتميز عن مداخل مدن مغربية أُخَر من حيث المواد المستعملة والتصاميم والزخارف والألوان من جهة أخرى.

تعد اللغة- بمفهومها الموسَّع - بنيةً أيضا، ومعنى هذا أنها نسق من العلاقات التركيبية (Syntagmatic)، والاستبدالية (Paradigmatic). وتشير العلاقات التركيبية على مستوى محور التوزيع إلى علاقات أفقية خطية- لا تعد الخطية خطًّا، لكن صنفا من العلاقات - تجعل معنى أي مفردة مرتبطا بسلسلة المفردات التي تجاورها يمينا ويسارا، في حين تدل العلاقات الاستبدالية على مستوى محور الاختيار على إمكانات استبدال مفردة بأخرى، بالنظر إلى حجم الاحتمالات المتاحة في ذهن المتكلم في أثناء دورة الكلام. وإذا بحثنا عما يقابل هذه العلاقات في النسق المعماري، يمكننا القول: تُبنى داخل المعمار علاقات تركيبية تحكم ترتيب وحداته المعمارية المختلفة التي تتداخل في انتظامها البنيوي الصارم قيود بنيوية وجمالية وجغرافية ظاهرة، وأخرى اجتماعية وثقافية ودينية وقِيمِيّة باطنة؛ فتفاعل هذه المؤثرات جميعها هو ما يبني «هوية معمارية» (Architectural Identity) مميزة ذات «طراز معماري» (Architectural Style) فريد، وَيُبْنَى معنى أي علامة معمارية انطلاقا مما يجاورها من علامات داخل الكلّ المعماري من ناحية أولى، وعلاقة هذه العلامات مجتمعة مع البناء المعماري من ناحية ثانية، مع مراعاة المعطيات الاجتماعية والثقافية والتاريخية والجغرافية.

أضف إلى ذلك، أن بناء معنى الكل المعماري (واجهة العمارة الطينية على سبيل المثال) رهن سميوزيس متعاضدة العناصر، أي إن الرسالة المعمارية للواجهة المعمارية تُبنى اعتمادا على ما توحي به مفرداتها المعمارية المختلفة بوصفها أنساقا ثقافية تواصلية: الزخرفة، واللون، والإطار الفني، والارتفاع والانخفاض، والعتبة، وما إلى ذلك؛ فهذه أشبه بكلمات معمارية تُكوّن خطابا فنيا. أما العلاقات الاستبدالية في النسق المعماري، فتحيل على التنويعات الممكنة داخل البناء الفني، كأنْ نستبدل وحداته المعمارية بأخريات، أو نُغيّر موقعها التركيبي، دون أن ننسى ما يرافق هذا التركيب الفني الجديد من استجابات جمالية وحيوات دلالية متطورة، وما يمنحه- أيضا- من تنويع في الأشكال التعبيرية المعمارية على مستوى الكلام المعماري/ الخرج.

3.4. المستويات اللغوية في المعمار

تُمكّننا العلاقات التوليدية التي تربط الأنساق السميائية فيما بينها داخل التجربة الإنسانية- كما وضّحنا ذلك سابقا- من تفسير تجليات اللغة في المعمار انطلاقا من خصائصه الفنية الفريدة والمركبة. إن تفسير النسق المعماري قياسا على النسق اللساني بيانٌ لتعبيرية هذا الإنتاج الثقافي، وإظهارٌ لانخراطه في سميوزيس إنتاج الدلالات الثقافية وإبلاغها. بناء على ذلك، يحتوي أيّ بناء معماري على بعد قواعدي يحكم تركيب وحداته المعمارية المختلفة: طبيعةً، ولونا، وحجما، وشكلا، وترتيبا، واتجاها. ويضمن هذا البعد التركيبي اتساق المفردات المعمارية النسقية، وتماسكها، ووحدتها، وانسجامها داخل كلّ فني ودلالي. إن هذا البعد النحوي يؤكد أن العمارة سلسلة متصلة من العلاقات المعمارية التي تُؤلّف وحداتها التكوينية، وليست شظايا من المفردات أو الوحدات المعمارية التي لا رابط بنيوي وجمالي ودلالي يحكم هندستها؛ بدليل أنه كلما حدث خلل في نسق العمارة، انهارت واندثرت.
يتشكل نسق العمارة من أنساق تواصلية فرعية هي: النوافذ، والأبواب، والسقف، والجدران، والألوان، والتصميم المعماري، إلخ. إذ تُكوّن هذه الوحدات الدلالية والتواصلية المختلفة «قاموسا معماريا» (Architectural Dictionary) ينهل منه المعماريّ ما يحتاج إليه من أجل عمليات البناء والتشييد والزخرفة، وتختلف هذه الوحدات باختلاف الفضاء، والزمان، والمكان، والثقافة، والخدمات. وتتضح هذه المعطيات أكثر حينما نتأمل عمارات مختلفة من قبيل: المسجد، والسوق، والبنك، وملعب كرة القدم، والمتحف، لنكتشف لغات معمارية مختلفة ومركبة الأنساق مناسبة لطبيعة المعلومات التي تعبّر عنها رسالة الفضاء، وملائمة لتنوع الخدمات والوظائف التي تقدمها.

إن العمارة من وجهة نظر السميائيات المعمارية بناء فني ودلالي مركب؛ ذلك أن

> الموضوعات المعمارية أو الأجزاء المكوِّنة لها تحمل معاني. ولعل الدافع إلى هذا الرأي، هو أن الموضوعات المعمارية، مثلها في ذلك مثل أيّ موضوعات لأشكال فنية أخرى، تعبيريةٌ (Expressive). مما يوحي بأن ما تعبّر عنه هو معنًى. وتشير الموضوعات إلى المعاني المعمارية، الداخلية أو الخارجية للموضوع. إذ يخبرنا المعنى الأول بشيء عن الموضوع المعماري (وظيفته أو تكوينه الداخلي) أو كيفية ارتباطه بموضوعات معمارية أخرى (اصطلاحات أسلوبية)؛ ويخبرنا المعنى الأخير بشيء حول العالم، على سبيل المثال، الجمعيات الوطنية أو الثقافية (لكلّ تصميم جغرافي مفردات تخصُّه)، أو اللاهوتية أو الروحية (مفردات التصميم الديني). إن هذه الموضوعات المعمارية لها القدرة على أن تظهر بوصفها ظواهر دلالية كالاستعارة، أو الكناية، أو الغموض (Fisher, 2015, p. 18).

وعلى هذا، تبدو ممارسة العمارة شبيهة بنشاط الكتابة؛ فهي عملية تشتغل من خلالها الوحدة المعمارية- اللفظية وغير اللفظية- كما الكلمة في النسق اللساني (النص الأدبي مثلا)، فهي الوحدة الرئيسة للقاموس المعماري.

ذلك أن «انتقاء الكلمة الصحيحة شأنه في ذلك شأن اختيار الطوب أو اللّبنة الصحيحة. فثمة الحجم، والوظيفة، والنصية أو النسيج، واللون؛ فكلها عناصر تؤخذ بعين المراعاة» (Grice, 2010/2011, p. 16). فإذا كانت «الكلمات هي الطّوب، فإن الترقيم هو الخرسانة أو الطين. يفصل بين الكلمات ويصل مجموعها بحيث يمكن أن تُكوّن بنية متينة» (Grice). لكن يجب أن نتذكر- دائما - أن ظاهر العمارة - كما مستوى التعيين في النص الأدبي - ليس منتهى التأويل، لكنه مدخل لعمليات التعرف وسيرورات القراءة النسقية.

لا نستمع داخل فضائنا المعماري إلى «أصوات معمارية» ناطقة بالفعل؛ والسبب أن لغة العمارة «لغة صامتة» من حيث الإسماعُ والتصويت لا التعبير والتوصيل؛ ذلك أن العمارة والمكان والزمان لا تشكل إلا وحدات فرعية ضمن نظام تواصلي عام حامِل للمعلومات وناقِل للرسائل تمثله الثقافة ككل، وهي أنظمة تواصلية تتكلم أعمق من الكلمات (Edward T. Hall, 1959). إذ نتلقى خطابها المعماري بعيننا المجردة عبر مفرداتها اللسانية والفنية المتعاضدة التي

تشتغل بصفتها وسيطا بين العمارة والمتلقي، ونفكّ شفراته اعتمادا على السنن الثقافية للكون السميائي المعني. ويُظهِر «المستوى الدلالي» في المعمار أن النشاط المعماري- أولا وقبل كل شيء- نشاط سميائي أعمق مما يوفره من خدمات نفعية صريحة؛ فهو «تمثيلٌ (Exemplification) (دلالة حرفية أو صريحة)، أو تعبير مجازي عن طبيعة الأفكار، أو المشاعر، أو الموضوعات في العالم» (Grice, 2010/2011, p. 16). فقد ضمّن الإنسان الزخرفة، واللون، والتصميم المعماري، والنقوش، واللغة، وما إلى ذلك، أنساقا مضمرة دالة عليه لا تنفلت من هويته وذاكرته: القيم، والأحكام، والانفعالات، والأهواء، والتصنيفات الاجتماعية، والدين، إلخ. ثم إن السياق الاستعمالي، وقوانين الكون السميائي المعني، وقواعده، وأعرافه هي المسؤولة عن تقييد عمليات توليد الدلالات الثقافية وانتقائها، وتلك معطيات يوفرها «المستوى التداولي» في المعمار. لقد قادنا هذا القياس المنهجي بين النسق اللساني والنسق المعماري إلى تحليل مستويات اللغة المعمارية على نحو إجرائي: أصواتا، ونحوا، ومعجما، وتركيبا، ودلالة، وتداولا؛ ذلك أن المعمار مثل جميع الظواهر الثقافية، يمتلك «عناصر إشارية تمفصلت وانتظمت كاللغة، وفق قوانين (أنساق) محددة» (مجموعة من المؤلفين، ١٩٩٧، ص. ٤).

في الختام، لا تدّعي هذه المقالة المماثلة الحرفية بين نسقَيْ اللسان والعمارة، على العكس: فهي لا تعدّ اللغة المعمارية نسخة طبق الأصل للسان، بل تناقش قدرات المعمار على إنتاج المعاني وإبلاغ الرسائل على الرغم من اختلاف طبيعة أنساق علاماته وطرائق تركيبها، ومن ثم فهو إجراء منهجي بالدرجة الأولى. تأكيدًا لذلك، عارض «مارتين دونوغو» (Martin Donougho) في مقاله: «لغة المعمار» (١٩٨٧) إمكان وجود لغة معمارية حقيقية كاللغات الطبيعية (اللسان)؛ بدليل أنّ المستوى التركيبي ملمح لساني مميِّز بين اللغات، إذ يذكر: «يتميز المعمار ببعض الملامح ويُظهر بعض الظواهر المشابهة للغة الطبيعية، لكن أوجه التشابه ليست شاملة ولا مقنِعة تماما. قد يُظهر المعمار، على المستوى التركيبي، بعض السمات التركيبية لكن لا يبدو أن الأجزاء المختلفة للموضوعات المعمارية تشتغل كما تفعل العبارات أو الجمل» (Fisher, 2015, p. 19). علاوة على ذلك، فإنّ عَدَّ العمارة لغةً فنية رهْن تعبيرها بالضرورة عن وظيفتها النفعية الأولية، بينما تتولد وظائفها السميائية الثانوية بعد تفاعل المؤوّل مع الموضوع المعماري استنادا إلى سياق الفضاء الثقافي المعني. وهو ما لا تقتضيه الكلمة في اللغة الطبيعية، فهي لا تشير في النص إلى معانيها الحرفية الصريحة؛ فقد تُستعمَل المفردة اللسانية أحيانا استعمالات متعددة: مجازا، واستعارة، وكناية، أو نجعلها أحيانا أخرى تعبيرا عرضيا وهامشيا في النص. لذلك، فما هو مُتأصِّل في التعبير المعماري أنْ يشير شكله، وتصميمه، وترتيب مكوناته، وطبيعة مواده المستعملة إلى وظيفته العمَلية لكونها المسؤولة عن تشكيل الأرضية الأولى للتفكير السميائي في العمارة؛ إذ لا يمكن تأويلها إلا بالانطلاق من معارفها المباشرة ووصفها البنيوي والتاريخي، على عكس اللغات الطبيعية التي يُؤوّل القراء تعبيراتها ومفرداتها في النص بما يناسب السياق دون التقيّد بمعانيها الحرفية الواردة في القواميس اللغوية من زاوية، ودون مراعاة أشكال حروفها وطبيعة موادها من زاوية أخرى (الجادرجي، ٢٠١٤، ص ص. ٣٣٩- ٣٤١).

4. العمارة ظاهرة ناطِقة: العمارة الطينية الواحية نسق علامات معبِّرة عن أفكار

يُثْبِتُ ما سبق أن التواصل لا يحدث بالنسق اللساني فحسب، بل بأنساق ثقافية وفنية أخرى مثل العمارة؛ بدليل أنها نسق سميائي يتشكل من أنساق علامات مُنتظِمة وموحَّدة ودينامية ومتماسكة قادرة الانخراط في سيرورة إنتاج المعاني وتوصيل الرسائل. ولكي نمنح دراستنا بُعْدًا إجرائيا تتضّح من خلاله مناقشاتنا النظرية السابقة لعلاقة العمارة باللغة، نُحلّل أنموذج العمارة الطينية بفضاء واحة تافيلالت بالجنوب الشرقي للمملكة المغربية؛ وذلك بغرض كشف ما تُوصِله من رسائل ومعاني غير مباشرة بواسطة لغة معمارية ثانوية فريدة.

إن العمارة الطينية ممارسة إنسانية دالة ابتغى من خلالها الإنسان بالواحة تمرير مجموعة من الرسائل الضمنية في السياق؛ لأن هذا الإنتاج المعماري علامة مركبة من مجموعة من الأنساق السميائية الفرعية الوظيفية المختلفة (التصميم، والألوان، والزخرفة، إلخ) التي تتفاعل فيما بينها من أجل التعبير عن معنى عام، وبناء رسالة منسجمة.

فقد تَمْذَجَ الإنسان الواحي موضوعاته ومشاعره وأفكاره المُتصوَّرة التي تمتلك معنى وغرضا ووظيفة ما في شكل خارجي يعد «ترجمةً» و«تمثيلًا» (Representation) لما هو مُرتَسِم في الذهن (Sebeok& Danesi, 2000, p. 1). وهذا معناه أن العمارة أصلها مفهوم تصوري يتحول إلى شكل معماري في الواقع الفعلي، فيصير علامة في سياق

الثقافة والمجتمع والفن والتاريخ. ويمكن توضيح هذه العملية كما يلي: ننتقل في اللغة من الدليل المادي (الكلمة) إلى المدلول (المعنى)، مفهوم الكلمة. لكننا نقوم بالعكس في التصميم المعماري؛ إذ ننتقل من المفهوم المجرد الذي هو المعنى الموجود مُسبَقًا والمخطَّط له في الفضاء الذي سيتم بناؤه، إلى البناء المادي الذي سيصبح علامة أو دليلا لاحقا، أيْ تمثيلًا لتفكيرنا المجرد؛ لأن خيال المُصمِّم في المعمار يسبق الوجود الفعلي للعمارة. ويُشكِّل العقد الاجتماعي لأي فترة تاريخية السنن الثقافية الرئيسة لتأويل القيم والأفكار التي يحتملها المعمار بصفته علامة، ونصا فنيا دالا يُقدِّم تعبيرا بصريا للأفكار التي تعني شيئا ما بالنسبة للإنسان (Terzoglou, 2018, pp. 120-121).

وعليه، فقد رمّز الإنسان فكرة السكن والحماية والاستقرار في عمارة طينية جسدت مرفقه الاجتماعي حيث يجد أمنه وغذاءه، ويُعبِّر بواسطة مواده ومكوناته وتصميمه عن قيمه وتقاليده وهويته (تاوشيخت، ٢٠٠٨، ص ص. ٣٩٤-٣٩٥). وهو عمارة مدنية تشكل النمط المعماري الرئيس للسكن بواحة تافيلالت الذي يوفر لهم المأوى والحماية من ظروف الطبيعية، ويلبي لهم حاجاتهم الاجتماعية (بوعصب، ٢٠١٧، ص. ٢٣٧). وقد انطلق المعماريّ التقليدي من فكرة مُحتمَلة مصدرها العرف والتوافق الاجتماعيان جسدت صورة مفهومية للعمارة في الذهن، فأعطاها تحققا خارجيا في «الهنا» (المكان) و«الآن» (الزمان) حيث التجربة الصافية والواقع الفعلي، لِتَمْثُل أمامنا هذه العمارة بصفتها علامة تجرّدت من واقعها المادي والمحسوس لتستوطن الذهن بوصفها فكرا وقانونا يُمكّنانا من التعرف عليها مستقبلا. ذلك أن كل نسق دلالي يتطلب شكلا خارجيا يدل عليه؛ فلا إمكان لتحققه في الواقع خارج بناءات ونماذج شكلية، «فما ندركه عن الدلالة هو شكل وليس مادة. وهكذا، فإن إدراك أي مضمون يقتضي تحويله إلى شكل، وهذا التحول يمر عبر الكشف عن الوحدات الدلالية التي تخبر عن المادة المضمونية، وهي المسؤولة أيضا عن إسقاط السياقات المحتملة» (بنكّراد، ٢٠١٩، ص. ٢٠).

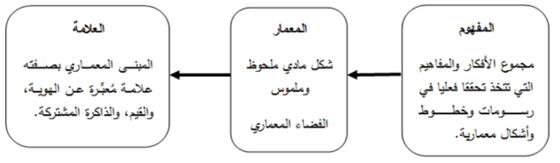

الشكل ١: المعمار: من المفهوم إلى العلامة، المصدر: الباحث.

توحي العمارة الطينية برسائل إضافية غير نهائية لا يمكن فصلها عن هوية فضائها السميائي، وقيمه، وذاكرته الجمعية؛ فهي علامة تدل على موضوعات ديناميكية مثل: الوحدة، والتماسك، والاجتماع، والتعايش، والتكامل، والتساكن، والانسجام، إلخ. وهي أبعاد دلالية أعمق مما يتيحه مستوى التقرير المعماري، أو الوظيفة النفعية. ومن ثم، فإن العمارة «نسق عاكِس» (Reflective System)؛ فهو يعكس البنيات الاجتماعية والثقافية والتاريخية والقِيمِية والدينية، ويُفسّرها ويؤوّلها في الآن ذاته. ويمكن توضيح علاقة العمارة بهذه البنيات الذهنية من خلال انعكاسها على مستوى الإنجاز المعماري، وتحكّمها- أيضا- في ممارستها، وهو ما يُولّد تنوعا وتعددا في الأشكال المعمارية بصفتها «كلاما معماريا» يختلف من فضاء معماري إلى آخر، ومن مهندس معماري إلى آخر، دون أن نفعل ذلك مرتين بالكيفية ذاتها؛ بسبب تباين المعايير الثقافية التي تستوطن الذهن الإنساني على شكل قواعد ومعارف باطنية مُنظَّمة سهلة التزين والاسترجاع والاستعمال، تتحكم في نشاطنا المعماري بصورة خاصة، وتُوجّه سلوكاتنا وأنشطتنا وأذواقنا بصورة عامة بصفتها تعليمات وبرامج وضوابط.

الصورة ١: العمارة الطينية علامة على الاتحاد والتعايش والاجتماع، المصدر: تصوير الباحث، ٢٠١٨.

يعد تصميم العمارة الطينية لغةً أيضا؛ لأنه ماثول يُعوِّض معارف غير مباشرة تتجاوز أبعاده الظاهرة وقيمه الجمالية، أيْ هو علامة دالة على التماسك والانسجام الاجتماعيّين. ولأن العمارة أحد الأنساق السميائية العاكِسة، فإنه يمكننا إثبات أن الهوية الهندسية للمدينة والعمارة لا تنفصل عن طبيعة الهوية الهندسية للاجتماع والأسرة؛ إذ يقوم نظام العائلة ونسق الثقافة ونمط الاقتصاد بدور فاعل في اختياراتنا المعمارية (مقبول، ٢٠١٦، ص. ٥٤). وهذا مغزاه أن الطابع الجغرافي والمناخ الصحراوي لواحة تافيلالت أثرّا في انتقاء الوحدات المعمارية وألوانها وطرائق ترتيبها (انتظامها) واتجاهات أبوابها ونوافذها وعلو أو انخفاض أسقفها، وأن النظام العائلي التقليدي انعكس على هندسة العمارة الطينية وتصميمها وتوزيع فراغاتها المعمارية وعدد مرافقها، وأن نمط الاقتصاد تبدّى تأثيره في مستويات قلة الزخارف والألوان والنقوش. علاوة على ذلك، يشير التصميم بوصفه علامة إلى التدرّج والخصوصية والتراتبية؛ ذلك أن العمارة الطينية مكان اجتماعي مدني يقوم على «تراتبية داخل تراتبية» في تقسيم فراغاتها المعمارية الداخلية: نصادف باب (١) العمارة الطينية، والدرج طيني (٢)، فدهليز (٣) يصل الباب بالداخل، ونجد يمينا أو يسارا بالدهليز «غرفة الضيوف» أو «المصرية» (٤) التي تحدّ من حركة الضيف وتحفظ حرمة الداخل بينما توفر حرية لقاطنيه خاصة النساء، ويتوزع وسط العمارة (٥) على غُرَف (٦) تتحكم فيه «وحدتان مجاليّتان: وحدة الاستقرار، ووحدة الخدمات، وتتوزع هاتان الوحدتان أفقيا وعموديا، وتخضع للتناوب والتعدد في الاستعمال يوميا وموسميا» (بوعصب، ٢٠١٧، ص ص. ٢٣٧-٢٣٨).

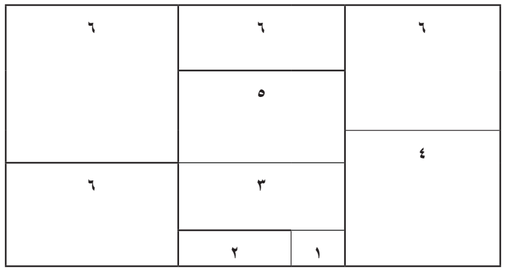

الشكل ٢: تصميم العمارة الطينية الواحية بصفته لغة ثانوية، المصدر: تصميم الباحث.

يُظهِر ما تقدم أن تصميم العمارة الواحية- مثلما تصميم المدن، والقصور، والقصبات- «يعكس القيم، والمعتقدات، والمعايير الثقافية» (Danesi, 2004, p. 236)؛ فلا إمكان لوجود أي شيء في النشاط المعماري من تصميم وتشييد وبناء وزخرفة غير مُسوَّغٍ نفعيًّا وجماليا ودلاليا. وهو ما يدل على أن النسق الهندسي ليس ذلك «الإدراك المباشر» المألوف لدينا، لكن نسق «الإدراك الخفي» (Lagopolos & Boklund-Lagopolou, 2018, p. 477)؛ والسبب أن العمارة ظاهرة سميائية تواصلية تُصعِّد النفعي والبدَهي والجمالي، لتُبطّن أنساق القيم والمعارف والسلوك.

إن كل شيء داخل العمارة علامة قادرة على الإيحاء المتعدد وتوصيل المعاني: الباب، والواجهة المعمارية، والسقف، والنوافذ، ومواد البناء المستعملة، والارتفاع أو الانخفاض، واتجاهات الأبواب والنوافذ، إلخ. وتُبنى الرسالة المعمارية من خلال تفاعل هذه الأنساق السميائية الفرعية كافة. وتوضيحًا لذلك، تعد واجهة العمارة الطينية «نصًّا ثقافيًّا» (Cultural Text) قابلا للقراءة؛ فهو يُدرَس في النظرية السميائية بصفته علامة أو نسقا من العلامات يُنتِج المعنى وينقله، وهو في الوقت نفسه يُتّخذ وسيطا للتواصل (Stamatovic, 2013, p. 69). ويوفر باب العمارة الطينية خدمة الدخول والخروج من المبنى، ويُؤمِّنه من اعتداءات الغير، ويحمي خصوصيات قاطنيه، ويعزله مناخيا عن الخارج (الحرارة، والرياح). إذ يساعدنا مستوى التقرير المعماري على التعرف على مكونات الباب، ووصفها، وتسميتها، ومقارنتها، وتحديد أبعادها التاريخية، ورصد قيمها الجمالية والفنية. وعلى هذا، يتشكل هذا النص المعماري من قطعتَيْن خشبيتَيْن أفقيتين، وقطعتين خشبيتين عموديّتَيْن تُكوِّنان «حَدًّا فنيا»، أو «إطارا فنيا» يرسم مجال «التمثيل» بدقة. ويُصطلح على القطعة الأفقية السفلى التي مصدرها شجرة النخيل: العتبة، التي قد تكون «قطعة من الحجر، أو الخشب، أو المعدن يكون تحت الباب (مختار عمر، ٢٠٠٨، ص ص. ١٤٥٣). وتُزيِّن هذه الواجهة المعمارية خمس مصفوفات مسمارية أفقية عريضة الرأس، تضمن تماسك ألواحه الخشبية العمودية العريضة، وَتَسُرُّ متأملي الواجهة؛ فالانتظام والترتيب الجيِّدان هما ما يُولّد إحساسا جماليا عند المتلقي. وقد وُضِع في الجانب الأيمن من الباب قفل حديدي حمايةً لممتلكات ساكنيه عند السفر، أو التنقل خارج القصر أو داخله.

الصورة ٢: الواجهة المعمارية بصفتها نصا ثقافيا، المصدر: تصوير الباحث، ٢٠٢٢.

تكتسب مفردات هذا النص المعماري قيمة تعبيرية وحمولة دلالية هي من صلب الحياة الاجتماعية المعنية، ويؤدي تغيير موقعها التركيبي أو سياقها التداولي إلى توليد دلالي غير نهائي، وهذا معناه أن دلالاتها وحداتٌ ثقافية وليدة بيئتها الحاضِنة لها إنتاجًا وتداولا. وعلى هذا الأساس، يضفي انعدام اللون جماليةً تُولِّد ألفة مع الفضاء الواحي الصحراوي، ويوحي ببساطة العيش والسكن بالقصر، وعدم التكلّف في المعمار. ومن ثم، صار انعدام اللون غطاء ثقافيا لرؤية مخصوصة حول العالم. وذلك جزء من دلالات مواد البناء المستعملة، وقلة الزخرفة؛ إذ تشير إلى عفوية الحياة داخل القصر، وكأنّ الإنسان الواحي يُفضِّل رؤية الأشياء على حقيقتها لا يُغلِّفها شيء، ولا يَحجبها حجاب. ذلك أن الصراحة، والوضوح، والثقة، والبساطة، معايير مهمة لعيش الحياة القروية، والاندماج فيها. لذلك، يحتمل انعدام اللون، وندرة الزخارف في واجهة العمارة الطينية دلالات متعددة مثل: الصفاء، والنقاء، والجوهر، والأصل، والحقيقة. كما تتصل العتبة بمجموعة من الطقوس والمعتقدات التي تختلف من كون ثقافي إلى آخر- ترديد البسملة، أو تلاوة سورة الفاتحة، أو تقديم الرجل اليمنى، إلخ- التي تستقر في أذهاننا وتوجّه تصرفاتنا اليومية، لكننا لا ننتبه إلى سلطتها بحكم ألفتنا لها. وتقع العتبة عند مداخل الغرف، أو المنازل، أو القصور، ويرتبط تخطيها بمجموعة من الطقوس (الأعراس مثلا)، لكن تدبّرها وتأملها يفضي إلى عدّ هذه الوحدة المعمارية الوظيفية «حاجزا ثقافيا» يؤدي دور الحارس؛ فهي حد فاصل وواصل في الآن ذاته؛ يفصل داخل العمارة عن خارجها ويعزلهما عن بعض، أي يفرّق بين «ملكي»/ «ملكنا» و«ملك الآخر»، أو بين «فضائنا»/ «فضاء النحن» و«فضاء الآخرين»، وهي في الآن نفسه تصل الداخل بالخارج.

خاتمة

تمكنت هذه المقالة من تحليل نمط من أنماط العلاقات التي تربط بين الأنساق السميائية الثقافية المكوِّنة للتجربة الإنسانية؛ ويتعلق الأمر بمناقشة ارتباطات النسق اللساني والنسق المعماري استنادا إلى علاقات: المماثلة، والتوليد، والتأويل. وقد ساعدنا اعتماد مفاهيم وأدوات لسانية، وسميائية ثقافية، وأنثروبولوجية تأويلية متكاملة لباحثين أمثال: «فيرديناند دي سوسير»، «وشارل سندرس بورس»، و«رولان بارت»، و«أمبرتو إيكو»، و«إدوارد تي هول»، و«إميل بنفنيست»، و«يوري لوتمان»، وغيرهم، على مناقشة أن الثقافة بعامة والمعمار تحديدًا موضوع سميائي تواصلي منخرط في سيرورة إنتاج المعاني وتوصيل المعلومات والرسائل داخل سيرورة الفضاء الإنساني السميائي.

بناء على ما تقدم، يمكن استخلاص النتائج التالية:

- الثقافة نسق سميائي عام يتشكل من أنساق علامات فرعية وظيفية متباينة هي مكوناتها المادية وغير المادية، واللفظية وغير اللفظية.
- الثقافة أنساق دلالية وموضوعات تواصلية قادرة على إنتاج خطابات دالة على هوية فضائها السميائي وقيمه وذاكرته.
- اللغة تصور سميائي مُوسَّع يشمل أيّ نسق سميائي لساني وثقافي وفني قادر على إحداث تواصل بين باعث ومتلقي على الأقل.

- المعمار أحد اللغات الثقافية الثانوية التي يمكنها توصيل المعلومات بواسطة مفرداتها المعمارية الوظيفية المختلفة.
- العمارة شكل من أشكال التواصل الإنساني الثقافي الذي يُبلغ رسائل عميقة تتوارى خلف الواجهات النفعية، والخصائص الجمالية، والوجود البدَهي.
- العمارة ظاهرة ثقافية ناطقة ومعبِّرة عن الهوية والذاكرة الجمعية والحضارة والقيم؛ فهي تتكلم معماريا بواسطة لغة معمارية تختلف مكوناتها وخصائصها وكيفيات انتظامها وتركيبها من فضاء ثقافي إلى آخر.
- العمارة بواحة تافيلالت تعبير رمزي أعمق من وجودها المباشر، ووظائفها النفعية، وخصائصها الجمالية.
- العمارة الطينية علامة مركبة من مجموعة من العلامات المعمارية الفرعية التي تشتغل بشكل ديناميكي وموحد ومنسجم من أجل بناء معنى مكتمل، وتوصيل رسالة متكاملة.
- العمارة الواحية نسق سميائي تواصلي مركب الوحدات ومعقد البناء؛ ذلك أن كل شيء في الظاهرة المعمارية شكل تعبيري: الزخرفة، والألوان، والتصميم، والواجهة المعمارية، والنوافذ، والغرف، وما إلى ذلك مما يمكن أن يُخاطب المتلقي.

لقد مكننا التحليل السيمولساني من تحليل نماذج من الوحدات التعبيرية التي تُكوِّن لغة العمارة الطينية بواحة تافيلالت، وتأويل رسائل خطابها المعماري التي لا يمكن عزلها عن سياق الكون السيميائي المعني، وتاريخه، وقيمه، وجغرافيته، وذاكرته. ومن ثم، يمكن عد العمارة الطينية سجلًّا مُوثِّقًا، «ذاكرة». وإن استمرار تناقلها وتداولها من جيل إلى آخر مغزاه الإسهام في ربط صلات تاريخية بين الماضي والحاضر والمستقبل. وبالمقابل، فإن كل انهيار أو اندثار لهذا الإبداع الإنساني أو جزء منه معناه حذف جزء مهمّ من هويتنا وذاكرتنا، ومن ثم فلن يكون بمقدور الأجيال القادمة الحصول على وثائق مادية تاريخية داعمة على التذكر الثقافي الجمعي. وإذا كانت العمارة الطينية بواحة تافيلالت واقعة ثقافية واجتماعية وتاريخية ناطِقة ومعبِّرة عن هوية قاطنيها، فإنّ ما نلحظه اليوم بفضاء الواحة من تراكم سريع لـ:«العمارة الإسمنتية»، و«العمارة السياحية»، و«العمارة الإشهارية»، أصاب الفضاء المعماري بـ: «هجنة معمارية»، و«تلوث عمراني بصري»، يتضاءل معه رابط الانتماء. إن هذه الدراسة راهنت على تنبيه المتلقي إلى لغة العمارة وخطابها الذي تبعثه يوميا بقصد تغيير إدراكنا لتلقيها، وهو ما يفتح آفاقا جديدة لدراسة العمارة الطينية من منظور مقاربات مختلفة: نفسية، واجتماعية، وهندسية، وغيرها، كفيلة بتقديم فهْم أفضل ومغاير لنشاط العمارة.

قائمة المراجع

المراجع العربية

- بارت، رولان. (١٩٩٣). *المغامرة السميائية*. ترجمة: عبد الرحيم حزل. ط ١. مراكش- المغرب: دار تينمل للطباعة والنشر.
- بريمي، عبد الله. (٢٠١٨). *السميائيات الثقافية: مفاهيمها وآليات اشتغالها، المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السميائية*. ط ١. عمان- الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- بنكّراد، سعيد. (٢٠١٩). *السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها*. ط ٢. الرباط- المملكة المغربية: دار الأمان للطباعة والنشر.
- بوعصب، امبارك. (٢٠١٧). *القصور والقصبات بمنطقة تافيلالت: دراسة عمرانية ومعمارية*. ط ١. فاس- المغرب: المركز المغربي للدراسات التاريخية.
- تاوشيخت، لحسن. (٢٠٠٨). *عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية*. ط ١. ج ٢. الدار البيضاء- المغرب: مطبعة النجاح الجديدة.
- كوبلي، بول. وجانز، ليتسا. (٢٠٠٥). *أقدم لك... علم العلامات*. ترجمة: جمال الجزيري. مراجعة وإشراف وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام. ط ١. ع. ٥٤٩. القاهرة: المشروع القومي للترجمة.
- لوتمان، يوري. (١٩٨٩). *قضايا علم الجمال السينمائي: مدخل إلى سميائية الفيلم*. ترجمة: نبيل الدبس. مراجعة: قيس الزبيدي. ط ١. دمشق- سوريا: إصدار النادي السينمائي. مطبعة عكرمة.
- لوتمان، يوري. (١٩٩٥). *تحليل النص الشعري: بنية القصيدة*. ترجمة وتقديم وتعليق: محمد فتوح أحمد. (د.ط). القاهرة: دار المعارف.
- مجموعة من المؤلفين. (١٩٩٧). *سيمياء براغ للمسرح: دراسات سميائية*. ترجمة وتقديم: أدمير كوريه. دراسات نقدية عالمية (٣١). دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية.
- مختار عمر، أحمد. (٢٠٠٨). *معجم اللغة العربية المعاصر*. ط ١. المجلد ١. القاهرة: عالم الكتب.
- مقبول، إدريس. (٢٠١٦). المدينة العربية الحديثة: قراءة سوسيولسانية في أعراض مرض التمدن. *مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية*، المجلد ٤، العدد ١٦، ص ص. ٤٧-٧٦.
- نجمي، حسن. (٢٠٠٠). *شعرية الفضاء: المتخيل والهوية في الرواية العربية*. ط ١. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

المراجع الأجنبية

- Alexander, C. (1977). *A Pattern Language: Towns- Buildings- Construction*. New York- United States of America: Oxford University Press.
- Baird, G. (1998). ''La Dimension Amoureuse" in Architecture (1969). In: *Architecture Theory Since 1968.* Edited by K. Michael Hays. A Columbia book of Architecture. New York: the Trustees of Columbia University in The City of New York and Massachusetts of Technology.
- Barthes, R. (1967). Semiology and the Urban. *Structuralism*, pp. 166- 172.
- Benveniste, E. (1974). *Problèmes de Linguistique Générale.* II. Paris: Ed. Gallimard.
- Danesi, M. (2004). *Signs and Meanings: A basic Textbook in Semiotics and Communiction Theory.* Volume 1. Series Studies in Linguistic Cultural Anthropology. 3 Edition. Toronto: Canadian Scholar's Press Inc.
- Fisher, S. (2018). *Philosophy of Architecture.* Center for The Study of Language and Information. First Published Wed 9, (2015). Stanford: Stanford University, accessed 02/03/2018, https://plato.stanford.edu/entries/archtecture/.

- Grice, G. (January 2010/ 2011). Words and Architecture. *Perspectives.* Ontario Association of Architects. Toronto: Publishing Spring, Summer, Fall, Winter.
- Hall, T. E. (1976). *Beyond Culture.* New York- United States of America:Double Day.
- Lazutina, V. T. et al., (2016). Semiotics of Art: Language of Architecture as a Complex System of Signs. *International Journal of Environmental and Science Education,* Vol.11, No.17, pp. 9991- 9998.
- Lorusso, A. M. (2015). *Cultural Semiotics: For a Cultural Perspective in Semiotics.* Series: Semiotics and Popular Culture. New York: Palgrave Macmillan.
- Lotman, J. (1977). *The Structure of The Artistic Text.* Translated From The Russian by: Ronald Vroon. NO. 7. ANN ARBROR. University of Michigan.
- Monticelle, D. (2016). Critique of Ideology or/ and Analysis of Culture? Barthes and Lotman on Secondary Semiotic Systems. *Sign Systems Studies,* Issue: No. 3, pp. 432- 451, accessed 20/01/2017, http://dx.doi.org/10.126997/SSS.2016.44.3.07.
- Sebeok, A. T. (2001). *Signs: An Introduction to Semiotics.* Second Edition. Toronto- Buffalo- London: University of Toronto Press.
- Sebeok, A. T. & Danesi, M. (2000). *The Forms of Meaning: Modeling Systems Theory and Semiotic Analysis.* Berlin& New York: Mouton de Gruyter.
- Semenenko, A. (2012). *The Texture of Culture: An Introduction to Yuri Lotman's Theory.* Series: Semiotics and Popular Culture. New York- United States: Palgrave Macmillan.
- Stamatovic, S. V. (July/ 2013). Architectural Communication: Intra and Extra Activity of Architecture. *Spatium International Review,* No. 29, pp. 68- 74.
- Terzoglou, N. (2018). Architecture as Meaningful Language: Space, Place and Narrativity. *Linguistics and Literature Studies*, Vol. 6, No. 3, pp. 120-132, accessed 20/03/2018, http://www.hrpub.org.
- Torop, P. (2015). Cultural Semiotics, In: *The Routledge Handbook of Language and Culture.* Edited by: Farzad Sharifian. London and New York: Routledge.